

محمد قطب

# صدأ القلوب

قصص قصيرة

الكتاب: صدأ القلوب (قصص قصيرة)

الكاتب : محمد قطب

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم - الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ - ٣٥٨٦٧٥٧٦ - ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

<http://www.apatop.com>

E-mail: [news@apatop.com](mailto:news@apatop.com)



All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

قطب ، محمد

صدأ القلوب

/ محمد قطب - الجيزة - وكالة الصحافة العربية.

الترقيم الدولي: ٢ - ٥٩٠ - ٤٤٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

.. ص، .. سم.

رقم الإيداع: ٢١٧٤٧

أ - العنوان

# صدأ القلوب

وكالة الصحافة العربية  
«ناشرون» 



# صدأ القلوب

(١)

تسللت عيناه عبر الزجاج المغلق تمسح لافتات المحلات. كان الصباح نديا، وشمس النهار تسخو في وداعة يوم شتوي دافئ. وبدت في الأفق مزق السحب تتداخل وتتلاشى في هشاشة محببة. ظللت أبحث عن يصلح لي زجاج العربة، وسط شارع ممتليء لحافته لا مكان فيه لقدم. أبطأت وأنا لا أكف عن التحديق. فكل المحلات متشابهة. ولكنه لحنني فأشار إلي بيده. كان قصيرا مكتترا. توقفت فتقدم وفتح الباب.

جاهتني بسمه ثرية تأكل الوجه كله. أسرتني البسمة وشدتني إليه ملامح دقيقة. أفهمته الأمر. بقفزة واحدة كان داخل المحل، وبقفزة أخرى عاد والمفتاح في يده. وبدأ يفك غطاء الباب.

بدا لي الباب جبا غويطا منسوجا بخيوط العنكبوت. وبدأت أصابعه تحرك الأسلاك وتخلع الزوايا. أكدت له في صوت مرتفع يحمل خوفا وقلقا: أن «الأكرة» في حاجة إلى إصلاح. «الأكرة» فقط. حدجني في صمت، وغادرت البسمة وواصل خلع الأسلاك، والزوايا والدوائر.. وتكومت الأجزاء وسقط الزجاج في الفراغ.. فراغ الباب الأجوف الخرب. خشيت على نفسي من مطالبه. فإن تمتلك سيارة في مدينة مزدحمة، وتسير بها فوق أرض مبقورة، وتتركها نمبا للأيدي والحجارة، وتدفع مخالفات سجلها من

لا يقرأ من راتب تتراقص أرقامه.. أمر يستدعي القلق وأنت ترى الرجل ينتهك العربة ويعري الباب ويفضحه فيتحول - في لحظة خاطفة - الأمر الصغير إلى شيء كبير بضخامة الهم الذي يصاحبه.

(٢)

كان وهو يرش الماء يتهادى في حركته. كان يمسك الكوز بأصابعه فتنساب المياه خيوطا رقيقة تتراعى فوق أرض متربة غار في جوفها شريط الأسفلت. لم يفتني المعنى، فحنن في الشتاء والسماء هذه الأيام لا تبخل، والأرض مبلولة، والطين يعكر وجه الأرض. قدم لي مقعدا وأعطاني سيجارة، وأتى بفنجان القهوة.

- ولكن الأرض مبلولة لا تتحمل المزيد. وضحك، وسوى ياقة قميصه، وأشعل سيجارة.

- صيفا وشتاء.

- ولو كانت السماء تمطر.

أدرك الدهشة، فسحب مقعدا وجلس، تعكر الوجه وانداحت في العين رقرفة باهتة:

- كان فناء البيت واسعا وفقيرا.. ولكنه نظيف.. في صباح كل يوم تنهض أمه فتكنسه وترشه بالماء، وتحرص على أن تبلل الأركان الأربعة. أذكر أنها ما قصرت يوما، حتى وهي مريضة كانت تتحامل على نفسها وتقوم به. كانت تمارس الأمر كأنه طقس جميل محبب.

وتكورت الدموع وسقطت، وتلوى خيط الدخان.

ودخل إلى المحل رجل رث الثياب ومعه مبخرة يتصاعد منها دخان أزرق اللون ورمادي.. وتنتشر في المكان رائحة طبقة تتمشى في كل ركن وتتبعه في كل مكان.. دخل وخرج وخلف الدخان والرائحة ولم ينطق.

أمال وجهه كله إليّ ومسح دمعاته:

حتى البخور!! كانت أمي تداوم على تبخير البيت، كانت تضع البخور فوق الجمر، وتلف به وهي تنفخ فيه.. وعيناها مندادة بالدموع.. ولسانها يبتهل إلى الله أن يتزل رحمته، ويفيض الغيث ويطرد الجن والشياطين.

قدمت إليه سيجارة.. وهضت وأشعلتها له، ثم طلبت فنجانين من القهوة السادة.. وعدت أواجهه، ورأسي يقترب منه، بل تكاد تلامسه.. وأنا.. يأخذني هذا الذي طفا على وجه الرجل وتمدد. كانت تلوح في هذه اللحظة - لحظة أن غاب الرجل بمبخرته - سكينه تترقرق على وجهه وتنام في عينيه.

لم تفتني رعشة خفيفة بأسفل الدقن، وتقلص في صفحة الخد الأيمن.. وقال فجأة.. والصوت ترنيمة خافتة تبوح بجزن قديم.

- ومنذ أن فتحت المحل.. وأنا لا أنقطع عن اثنين.. الماء والبخور.

وهض فجأة.. ولاحت عليه أمارات اليقظة وتوهجت عيناه:

- كانت أمي عظيمة.

وتوقف لحظة خطف فيها شوقي.. لحظة صمت تشبه الوقفات  
الصامتة التي توحى بالترقب، ومد يده كلها في الفراغ.. وسدد إصبعه في  
حدة كمن يفقاً شيئاً.

- مع أنها حرمتني من الميراث.

واستدار، ودخل إلى المحل، ووقف أمام السندان وامتدت يده إلى  
المفتاح.

(٣)

وضع الأكرة داخل السندان وضغط عليها، صاح دون أن ينظر إليّ  
أو يخلع بصره عن الأكرة:

- القلب في حاجة إلى تغيير.

وصلني الصوت فطمأنت نفسي أن الأمر لا يعدو قلب أكرة،  
وأدرت بصري إلى الشارع أتلهى بالوجوه، ولكنه خبط بيده على الطاولة  
وفك الضغط على الأكرة.

- ما رأيك؟

- ليس لي رأي.

- كيف وأنت صاحب الأمر؟

- في أي شيء؟!

- في القلب.

ضحكت فضحك، لاحت أسنانه مفلوجة فحدست أنه طيب. لم أستطع أن أتخلى عن موروثاتي القديمة، ولم أنس أن السنة المفلوجة تجلب لصاحبها الخير وتفتح له أبواب الرزق الموصدة. وبالرغم من أن عم عبده كانت أسنانه تسمح بمرور حبل وكان يصير طعامه في منديله الخشن، ويترنم - صافرا - وهو يوضح كيف يأتي الخير راحما. إلا أنه كان يؤكد أنه الاستثناء. وكان يحكي وهو موقن تماما بما يقول. وظللت أحمل كلامه لأنني أدركت فيه صدقا لم أعهده كثيرا في الناس.

وحين اقتربت من الرجل بدأ أنه ليس كل صاحب حرفة جبارا!! تذكرت ما يقال عن مغالاتهم، فارتجف القلب وتموجت في داخلي سحابات قلق معقودة بخوف يصاحبني منذ امتلكت العربية. وترقرقت عيني بوميض متوسل وهو يقلب الأكرة بين يديه وهو يريني موضع القلب، وهو يميل علي ويتسمم، وهو يعتدل شامحا ينتظر. كان قلب الأكرة صدئا. شائخا مشروخا .. فأدركني وجل لا يبين على قلب الدم الساخن.

مسكته بين أصابعي فعلق الصدا وشاع في الجلد. وتملكتني هزة طويلة اعترتني حتى كدت أتطوح. أدركت أن ما يحدث لي ناتج عن صدا ما. وأن البنت التي كانت حبة قلبي يوما قد تحتاج إلى قلب القلب حتى تذوب طبقة الكلس الصدئة التي تمنع مرور الدم وتسليخ منه سخونته.

أسرع وهو يتملاني.. وضغط على الحروف بطريقته:

- كل شيء له عمر يصدأ فيه.. حتى قلب الإنسان.

تمتتم في همس مسحوب لا يبين:

- شاخت القلوب.

ولما حدى في، وظلت عيناه تكبان فوق وجهي بريقا مدهوشا قلت  
في حدة حزينة:

- القلوب في زماننا صدت قبل الأوان.

أمال رأسه وبدت عيناه الغامقتان تضيئان وتزمان معهما جلد الجفن:  
- صدقت.. صدقت والله.. نادرا ما أتحدث مع زبائني لكنك أخذتني..  
فتحت قلبي إليك ولكنه لم يصدأ بعد، ولكنه سيصدأ، فالهموم كثيرة،  
والحاجات فوق القدرة، والطلبات لا تنتهي.. هيه.. أغير القلب.  
- ألا يمكن إصلاحه?..

ظل صامتا ينظر إلي.. لم تفتني لمعة عينيه المدهوشتين فأسرعت قاتلا:  
- إذن غير.

ولم أدر كيف خرج مني دون وعي ما، في تلك اللحظة المقبوض فيها  
على الأكرة صوت رقيق واهن.  
- ترفق به.

ولم أتحمّل «طرقة» المطرقة، ولا ضغط السنندان، ولا قرصات المفتاح  
ولا الاستسلام الهامد للأكرة.. فأدرت وجهي كله وأطلقت على الوجوه.

(٤)

وقف منتصفا، بدا طويلا رغم قصره، ملويا رغم اكتنازه، تلوت  
الأكرة بين أصابعه، جلاها فلاححت في العيون ذات بهاء، كانت أصابعه

تلامسها في حذب وحنان.. ثم فجأة نهشت يده القلب الصديء ورماه..  
كان متكفئا خربا، صدئا، مهملا.. ولاح كما لو كان يئن أنته الأخيرة،  
ويودع عالما مترعا بدفء ملمس الأيدي..

وضع مكانه قلبا آخر فتيا، علاه ينقط من الزيت، وذلكه بين أصابعه  
وأدفاه.. مرر عليه السلك وأداره.. فدار.

(٥)

خطف عيني امرأة محبوكة الخطو، ملفوفة بالثياب الصوفية الأنيقة.  
هبت على المكان موجة من العيون اللاقطة. فأشعة الشمس الدافئة المخترقة  
تجمعات من الغيم هنا وهناك قد خففت بعض الحذر الشتوي عند الناس  
وسمحت لهم باستخدام ما عطله البرد. لا أذكر أن قلبي نبض للملاحظة  
والوسامة منذ أن جاء طفلي الثاني. ثمة أشياء تحدث فلا تقف أمامها كثيرا.  
لأنها - وهي تحدث - تبقى ولأنها تكون قد مست شيئا كان منسيا ومهملا  
حين سقطت عيناى على المرأة كان شيء ما في داخلي يتحرك..  
يتحرك في ببطء.. يتحرك في ببطء شديد.. وكنت أحس بتنميل من يفيق من  
نوم طويل.. أمالت المرأة الوسيمة تجاه المحل.. رأسها وابتسمت، فأدرت  
رأسي في الاتجاه نفسه.

كان الرجل القصير المكتنز يتسم. رفع يده وحيها ودعاها وضحك.  
مرقت المرأة كشعاع شمس شتوية. دهنته حالة غريبة من الدهول فرشت  
ملاحمه ولكنني صدت تكشيرة تتكون، وعبسة تتجمع، وزمة استحكمت  
على الشفتين.. رأني محدقا فيه ومتسائلا فبادرني في حدة:

- مدرسة الولد.. شاطرة ولكنها منشار.

ضحكت فجأة. لم يعد المنشار اسم آلة، ولكنه أضحى كلمة تعقد  
الأسنة وتلوي القلوب، وضعت يدي على جيبي. فمنشار هذا الزمان  
ينشر القلوب والجيوب.

- ابني في السنة الثانية الابتدائية.. ما شاء الله.. وهي تعطيه درسا  
خصوصيا.

- كان يجب أن تساعد.. أنت..

- المشاغل كثيرة، وأنا لا أتفرغ له.. وأنا لا أقرأ ولا أكتب وأريده أن  
يتعلم.

وتدأخلت الأجساد أمام المحل يطلبون منه عملا ما، مد الصبي إليه  
«الكوريك» فرفعه إلى أعلى ولمسه بأصابعه وانحنى عليه ناظرا في داخله،  
وركنه أسفل الطاولة وقال في حسم:

- ثلاثة جنيهات.

- هذا كثير على كوريك.

- غيري يصلحه بخمسة. دس الجنيهات الثلاثة في جيبي واستدار. كانت  
المرأة تطالب بإصلاح «القفل»، قلبه في يده، حرك فيه المفتاح فاستعصى  
فطلب جنيها.

كنت ألاحظه وهو يضع الجنيهات حتى تورم الجيب وأطلت ثنياها  
الورقية كشارب فأر يتلصص. أمال رأسه كمن يتوقع أحدا:

- أتعرف كم تتعاطى المدرسة؟

- كم؟

- ثلاثة جنيهات بالتمام والكمال.. ولا تستحقها.

- إنها تعلم ابنك.. والحياة كما تعلم قاسية.

- ولكن المبلغ كثير.. إنها ترسم له البطة والديك.

وتلعب معه بأعواد الكبريت.. وتمسك أصابعه وتعد عليها.. وتأخذ

ثلاثة جنيهات.. والكبريت من عندنا نحن، والورق أيضا.

- ألا تطمئن إليها.

- لا أطمئن لمدرس أبدا.. وإلا قل لي.. ماذا يعملون في المدرسة؟

أمال رأسه كمن يتوقع أحدا.. وأخرج سيجارة وأشعلها.. وطلب

فنجانا من القهوة.

(٦)

وقف الفتى الصغير اليافع أمام المحل. أدار رأسه يمنة ويسرة ثم دخل

وغالب قليلا وخرج. كان النهار يثبت أقدامه ويزحف إلى الضحى. وقف

منكوش الشعر يرتدي بنطلونا وحذاءً عاليا. أخرج علبة سجائره «الكنت»

وأشعل واحدة.

عاد فدفسها خلف بنطلونه في جيب صغير مدقوق. تحرك فلاح

البنطلون باهتا على الفخذين.. كان - قديما - وهي ترتدي البنطلون الجيتز

حورية تداعب الشباك ولا تدخل. كان كل ما فيها يتفتق على النسيج،  
ويسيل عبر الخيوط والمسام.

كانت تشتهي طعام الصيد وتتأبى على الفريسة. وحين تواجه الخطان  
- كنت خطأ - واشتبكا، قرباً النسيج وانفك. غلظ القوام وغطاه رداء  
واسع فضفاض. ومازلت أحمل في الذاكرة صورة شبحية لقوام طالما تفتق في  
الجيتز، وأسر قلبي وصادني به.

رمى السيجارة وسحقها بعنف ظل ضاغطا عليها بجذائه.

أخرج المشط ومشط شعره، وامتدت يده وضغط على كومة الشعر  
في الخلف وعلى الجانبين، ثم نفخ في المشط وأعادته ببطء إلى جيبه مرة  
أخرى.. لاصقه «الأسطى» وهمس في أذنه.

نظر الفتى إلى بركن عينه. ولازمه صمت طويل. لم أره يفتح فمه،  
حركاته تلقائية ونداءات رئيسية ترتد إليه عبر عينين تتسعان حيناً أو  
تضيقان حيناً آخر مع حركة حاجب كث أو انفراج خفيف لزواويتي  
الشفيتين كان في المنعته خفيفاً خفة الحركة التي تشي بتوازن واضح بين  
الجسم والمسافة، وثمة مهابة تبدو من وقفته ومن التواءات عوده النحيف..  
وفتح الباب.. أطل عليه من عل، وانحنى فوقه، أعاد الأسلاك وستر العري،  
وثبت الأكرة، وعلا الزجاج، وانخفض. وكانت المنعته واحدة. في ظل  
هذه الانعناء الواحدة أنهى عمله. فتح الباب. وأغلقه ثم صفقه وعاد.

ارتفق الطاولة ومد يده إلى الجيب الخلفي وأبقاها قليلاً ثم سحب في  
تلذذ ببطء علبه «الكنت». ضرب عليها بأصبعه وأخرج واحدة. وضعها

بين شفتيه في الزاوية اليمنى وظلت تترقب قداحة فضية اللون. توهجت  
القداحة وتصاعد الدخان. خرج الدخان كثيفا ملتويا. ثم رمى بها ولم  
يسحقها.. ظلت السيارة تعطي دخانها خيطا دقيقا متوصلا على حين  
مضى هو إلى العربة الأخرى التي تنتظر أن يأتي إليها.

(٧)

كان الرجل يجلس على كرسي صغير داخل المحل. وحين رأي أدخل  
عليه فمض واقفا، أحسست أنه يعاملني كصديق قديم. أكبرت فيه هذا  
الإحساس وهو يحيط يدي بكلتا يديه. ومرح في داخلي طيف مريح أشعري  
بطمأنينة.. عجل وباعد بيني وبين الجيب المتورم بالأوراق المالية. ولكنني  
صدت همودا يحط عليه ويسرع فوق ملامحه. فارقته بسمة كانت تشع على  
الوجه منذ الصباح. وكانت بسمته تتناثر مع زخات الماء. وها هي تفارقه  
وقد خلفت تبيسا وجفافا.

أفهمته أن الفتى أنهى عمله واتجه إلى عربة أخرى. ظلت عيناه  
ساهمتين عالقتين بوجهي. وحط صمت ثقيل لفنا برهة. وقف الصمت  
سياجا أمام ضوضاء الشارع. اللحظة قصيرة ولكنها سلخت زمنا واقفا لا  
يصله صوت ولا تحدشه حركة. وتحرك الصمود وانزاح، وبقي حزن قديم  
يتماوج في العين.

لم أتصور يوما أن أقف في مواجهة رجل قصير مكتتر يمتلك محلا  
لتصليح أبواب السيارات وجيبه يمتليء للحفاة، وبعض الهم تشي به  
ملامحه.. وأنا أزوره لأول مرة، ويستقبيني ويحاورني.

.. لم يعد المهم مقصورا على فئة الرواتب المحدودة، ولكنه تضخم وتمدد وتمطى، فطال الكل. نبهته إلى الأمر ثانية، فارتجف في إفاقة مفاجئة ومد رأسه تجاه الصبي:

- أتعرف كم يأخذ في اليوم؟

ولما رأى صمتي وترقبي وانطباق شفتي.. قال في تنهيدة عميقة:

- همسة جنيهاً كاملة، وليست كثيرة عليه.. أنه يستحقها.

وتمتت في همسة مجروشة.

- همسة جنيهاً! والتفت بكاملي إلى الصبي.

كانت انحناءاته محسوبة. وحر كته متزنة ورأسه مائل على عنقه والمفك في يده، والسيجارة في ركن فمه.

تذكرت في لحظة خاطفة - برقت فأضاءت - عمرا طويلا ضاع ما بين الكتاب والعمل.

- لم يكمل تعليمه، خرج من المدرسة، لم يجد نفسه فيها.

- أحسن صنعا.

تناول قفلا وقلبه بين يديه، أدخل فيه مفتاحا بصعوبة، حركة يميناً ويساراً ثم رمى به. كانت الحركة عصبية، وكان صوت الارتطام مزعجاً.

- هذا الصبي أخي.. أعطته أُمِّي وحرمتني.. أعطته ليتعلم.. فضيع ما أعطته وجاءني.

ضرب الطاولة بيده فتناثرت المفاتيح والمسامير وتكورت السيور.  
- الآن كلهم يأتون إلي..

نظرت إلى معصمي وابتسمت. أخرجت حافظة النقود وانتظرت.  
نظر إلى في حسم:  
- ثلاثة جنيهات.

بزغ ضيق فوري لم أتحملة. لم يمض على الأمر كله ساعة زمان  
واحدة. لم تفته نظرتي القلقة ولا انقباض أصابعي على الحافظة.  
- المهم هو العمل.. لا يشغلك كم يستغرق من زمن.. أنت جديد علينا  
ولكنك ستبقى فينا.

- المبلغ كبير على إصلاح أكرة.

- لا تقل إصلاح أكرة.. قل إصلاح القلب لقد أعدنا للقلب حركته.

وضحك. كان يضع النقود في جيبه وهو يضحك، واستدرك لأمضي  
ولكنه استبقاني. طلب لي هذه المرة كوبا من الشاي الساخن وأصر على  
احتساؤه.. وحرك الكرسي بعيدا.. وجلست أنتظر كوب الشاي الساخن.



## الزمان الذي كان

تدحرجت من أمامه المرئيات دون أدنى اهتمام، فالحرارة وأدت فيه  
إمكانية الفعل والحركة، وسحبت من العين مجال الرؤية، وبؤرة التركيز.

سقطت جفونه في كسل لرج وجرجر ساقيه في همود. أحس عبئا  
ثقيلًا يفيد الخطو، وخدرا هائلًا يمرح في الشارع ويحط على الوجوه  
والأذرع والسيقان.

فقدت الأشياء بريقها تحت صهد الشمس.. فاختنقت النفوس،  
وضاقت الصدور، وبدت الملامح على الوجوه باهتة ومستفزة.

انسحب إلى الداخل ومضى في تناقل وتباطؤ على حين لهث البعض  
هنا وهناك.. ولكنه في اللحظة ذاتها لحظة أن خلع بصره عن الطريق وجدها  
أمامه.. تسمرت القدم وأصابه ما يعيشه العين تواجه ضوءا باهرا لا تقوى  
عليه بعد ظلمة تعودت فيها على الظلال المعتمة.

جفل وارتعد، واختلج الجفن اختلاجة مدهوش لا يفيق.

صلب جذعه وحقق في قوة، كان حائرا وقلقا، رمقها فراعه أنها لا  
تقل عنه دهشة وتعجبا. احتوتما عينه خلسة فمد لها يده بفعل القوة التي  
هزت كيانه وعجز عن السيطرة عليها. أخذت من المفاجأة لكنها لم تخرجه.  
استكانت أصابعها في يده؛ فحدّث نفسه أن القلب لا يزال يملك النبض  
وإن ران عليه الصدا.

انزوييا تحت «باكية» بارزة فعظاهما الظل. بادرها في حذر:

- كأنني في حلم!

أزاحت جدائل شعرها الأصفر فلاحت شحمة الأذن خالية من قرطها الذي  
اعتاد رؤيته:

- من يصدق؟

- عمر طويل.. عشر سنوات؟

استدار فأعطت الشارع ظهرها وتمتمت:

- لم تتغير.

- لم أتغير!!

في الغياب كنت أتصفح الوجوه، أقرأها وأتملاها، علني أجد فيها  
وجهك. رأيت الأبيض والأسود، والرمادي الداكن، البيضاوي والدائري  
والمثلث.. لكنني افتقدت فيها جميعا جبهتك العريضة التي كثيرا ما وشت  
بعمق الشعور وحرارة العاطفة، افتقدت الخيوط الدقيقة الخافية التي كانت  
تجعل داخلك منسابا في رقة بالغة.

ولكنه.. حين لنحها واحتضنها نور البصر لحظ خيوطا دقيقة تكاد لا  
تبين فوق الجبهة، ولم تفتته ضمة الخيوط حين عبست لحظة الدهشة.  
وضح له أن الزمن وراء العيسة والتغضن.. وحركت يدها..  
فتأرجحت حقيبتها، وكان اللون الأخضر يميز ملابسها بوضوح.

أعرفك من الحركة وأعرف فيك عشقك للأخضر. كم حيرني هذا  
الرأس الدقيق بامتداد العنق، وحدة الذقن. كان حين يستكين في حضني  
يرقص العالم لنا، ويفور داخلنا بالحب والطهر.. أكان يجب أن نفترق؟!!

- من يصدق أننا نلتقي بعد هذا العمر الطويل!

وابتسمت... كانت البسمة

- رغم الحذر الواضح منها

- تشي بتفتح زهرة مبتسمة فاجأها قطر الندى على غير ميعاد.

- ما دمنا أحياء..

- صنعنا في القاهرة. طوحت برأسها فلاح الخمدار العنق حتى الكتف، بدت  
العنق مستقيمة ومكتزة.. وكانت دقيقة منحوتة.

- كان لا بد أن نتوه ما دمنا.. قاطعها في تودد:

- لكنك ما فارقتي أبدا.

تسطحت عيناها وبدا له كأن البريق قد خبا فجأة.. وعلا صدرها  
الملتليء إثر تنهيدة محبوسة.

تنظرين في ألم، وينضح من النظرة توحش مخيف.. أين منها - الآن -  
أنت.. حين كنت تطبقين الجفنين على همسنا المعطر بالحب، وترخين  
الرموش على قلبين يستدفنان بصهد الدم..

كان رمشك خطين من نبات السوسن يوحيان بالأمان.. فما بال  
العين انسحب منها الوهج.. وبات الحب غريبا وباردا.

- علمت أنك تزوجتك.

- وأنت أيضا.

التقيت عيناهما في دهشة، وفرش الوجهين شعور «طازج» لوقته لكن وجهها سرعان ما استسلم لهمود غريب. لاحظ أن الذقن المسحوبة ترتعش، وجلد الرقبة الطويلة يتقلص. حركت شفيتها فلاح خيط أبيض لأسنان مصقولة.. ولمح في التوسنا مكسورة..

لكن الزمة العنيفة أطبقت على الشفتين في قسوة..

- أكان يجب أن نفترق.

- لعلك حين اخترت وفقت.

أسند ظهره للحائط، وأثنى ساقه. حطت عليه كآبة عاتية، داخله صمت غويط.. وأحس أنه قد يبقى على صمته دهرا، فاعتدل وأحاط بنظرة مسترحمة، كانت تنتعل حذاء لامعا بجلية فضية على الجانب، وشريط مفضض على باطنه.

- ما زلت تحبين اللون الأخضر والحذاء الـ...

وأخرسته نظرة عاتية زلزلته. كان طوال الحديث حذرا خشية أن تأتي تلك اللحظة، لحظة أن تزلزله العين التي كانت بحيرته وظله ودغله.. لحظة تمزكيانه وتسحب نفسه إلى غور مظلم من الفشل فتسد الأمل، وتقطع الخيط الذي جاهد أن يستره خلف الذاكرة.

- كان موقفا صعبا.

أنت لا تصدقين أنني كنت أهث في البحر عنك، لقد انقسمت نفسي  
إلى شطرين، كنت أجري وراءهن، أبحث عن الشعر المنساب في عفوية،  
الأصفر من أطرافه والداكن الصفرة في الوسط، كان يقودني فأسرع ويتوه  
في عيني العالم، أضع كفي وأفرش الأصابع.. كانت كفي تيممة وكنت  
تميزين جلد أصابعي باللمسة.. وكن حين يلتفتن بغمته لحركة كفي يغوص  
قلبي وأغضى حياء.. وأعرف أنك مازلت غائبة لأنه في استدارتك - وهذا  
ما لم ألاحظه في كل الوجوه - يلوح الوجه بدرا يغمره البهاء.. فما بال  
وجهك الآن يكفه ويستوي مع كل الوجوه!

- لا أنساه.. ثم..

وزمت شفتيها بما يوحى بالقرف؛ فهاله الأمر وحدت نفسه بأن الأمر  
لا يريح.

- كان يجب أن تقول لي..

- لم أستطع..

- لكنك تركتني صباحا بأكمله أنتظرك.. وكنت أرى النيل أمامي يبكي..

- كان الأمر فوق طاقتي..

- حملت ألمي واتصلت بك فتهربت..

- أعترف أنني أخطأت..

- أكان حبنا خداعا..

- لم يكن سوى الحب خالصا.. الحب بأسمى معانيه وأنت تعرفين.. لوت وجهها، وفتحت حقيبتها، أخرجت المنديل وبصقت فيه.

- أنا الآن أعيش خطئي..

- لقد بعثني..

-.. وندمت.. أتحزنين في داخلك كل هذا الرعب والتوحش، كنت أملا يحدوني، ونفسا تشجعني، تشمليني بحبك، وكان قلبك متدفق الدفء، ونبض الحس، وضحكك غيمة الضوء تظلل الوجه وتنعش الفؤاد. كنت تعطيني البراءة وأعطيك الأمان.. وقف الزمان كالديدبان بيننا.. وكان الموت.. فوق طاقتي انسحبت لأن عبئا ثقيلا انضاف إلى أعبائي، فحصنتك من المكابدة، وانسحبت، وفي انسحابي إكبار لك، وحفاظ على الحب، حفظتك في نفسي، وها أنت تقتليني بتوحشك.

واهتز فيها الكيان الدقيق المتناسب. غطت وجهها كله بالمنديل ثم أبقته لحظة وسحبته في تمهل بطنى.. واجهته ثم لوحت به في نفور.

- كرهتك يومها كما لم أكره أحدا في حياتي.

وكالخصى المجروش تقلص قلبه وانبسط. والدم المهورس ينثال داخله باهتا وباردا وميتا.

- كانت الحياة معك ميلاد يوم متجدد، كنا نولد كل يوم مرتين في اليقظة والمنام.. وها أنت سحبتي مني الضوء وألقيت علي الظلال.

- لكنني مازلت أحبك.. حفظتك مني وداومت حبك..

- وما الفائدة؟

- كلما تشتد بي الأيام أعيش فيك..

- أهي جميلة؟

اعتدل واقترب منها مندهشا:

- من؟

- امرأتك..

ارتاع، واستدار، فبان لها بجانب وجهه الأيسر مهموما ومحزونا.  
تقلصت شفتاه، وداومت عينه الرعشة. لاحظت قريبا واضحا بين الرقبة  
والكتف وفوضى في الشعر عند مؤخرة الرأس ولم يفتها التهدل في الكتفين.

- لم تكن يوما ما مثلك.

- لكنك منذ صباح ذلك اليوم لم تعد شيئا مذكورا.

أدارت ظهرها له.. مد يده وعينه وحسه. حاول أن يستقيها لكنها  
استقبلت الشارع ومضت.

وقف مذهولا.. غطت عينه غيمة ظل سوداء.. تابعها فأحس أنها  
أخذت منه عمره وسحبت منه أنفاسه، فالتوى عليه قلبه. مالت نفسه أن  
ينطلق وراءها، أن يعرف مسارها واتجاهها.

فعله يداوم الرؤية لها من بعيد.. فلا يعقل أن تظل في الذاكرة عشر  
سنوات كاملة ثم تمرق من أمامه كالشهاب ولا تخلف سوى الهم والحزن.  
بدا له الأمر صعبا وقاسيا. وهو يرى البناء الذي أقامه في داخله يتصدع

ويتهاوى.. حدث نفسه في هوس صوتي مختلط بأن الالهيار قد أتى على كل شيء.. تذكر بيته، وامراته.. فداهمه الألم.. ومضى وراءها متسحبا.. كان يخلع خطواته من الطريق خلعا. صوب نظره تجاهها.. فتلاشت الأشياء في عينه ولم يبق سوى جسد جيد التكوين وخبطات حذاء لامع تعكس حليته المفضضة وهج الشمس. ضاق صدره وعجز عن التقاط الأنفاس.

كان الهواء ساخنا، والجو متربا، والشمس تشتعل. نشع العرق فسالت الزوجة طرية مطاطة، ضايقته أنفاسه، وعرقه، فشر بدبيب النمل يرعشه ويتره. عاد النظر. سدد بصره بقوة، أطل عينيه بكفه ليرى أوضح.. سقطت الشمس في عينه فتاهت الرؤية، جاهد فلمحها من بعيد نقطة صغيرة باهتة الملمح والتكوين، خطفها سيل البشر، وسرعان ما ذابت ثم غابت وخلفت في نفسه الحسرة. سقطت من عينه دمعة، شال يده بجهد كبير ومسحها. لعن اليوم والشمس والشهد. برق في ذهنه وجه امرأته وتمدد لسانها في وعيه.. فندم أن رآها.. فماذا تجدي الرؤية حين يصحبها الالهيار.

مال إلى مقهى، وجلس كابيا ومتهدما. حلق في كوب الشاي. يتصاعد البخار ثم ينحسر. لا يكف عن التحديق، ساحت معالم الأشياء.. وانحسر البخار. حدث نفسه بأنها كانت الملاذ حين يضيق البيت.. ترى من أين يأتي الملاذ وقد تم الصدع.

وأصابه الذعر حين فكر في البيت فدوام التحديق..

وظلت الأشياء في عينيه مبهمة، أسند رأسه بيديه وطمغى الألم يعتصر  
عينيه.. وتقاطرت الغيمة.. وانثالت الكلمات في رنين صوتي محزون. لمس  
شفتيه فتأكد أنهما مطبقتان في زمة قوية.. ملم نفسه وحقق في الفراغ..  
وكانت الكلمات لا تزال ترسل صداها الحزين.

كنت أعيشك بعين الحلم والخيال، فلماذا حين وجدتك بعين  
المشاهدة بهت الزمان وضاع مني اليوم.



## سفر الحلم

كان المشهد كله باهتا. طاله تغير أساء إلى ما فيه وكأنما يراه لأول مرة. الردهة ضيقة، والجدران واطئة، والساعة الدقاقة خشنة الصوت، والأريكة بدت بطول قامة الإنسان. وكان المدخل إلى الغرف الخلفية ضيقا ومعتما، والسقف في المواجهة يكاد يتزلق. شدته غرابة الستارة حين لمح فروع الأشجار ومناقير العصفير. إلى اليسار وعلى الحائط العريض واجهته الصورة. شدت الوجه بسممة مزمومة وراحت خصلة الشعر النائم تداعب ذا الجلباب الأبيض يقف قلقا ومستفزا.. وبدا الأمر محيرا.. وها هو يجلس له ويقرأ في صحيفة.. من هو؟ لا يدري! باحت الخطوات بجرمة قادمة. تقدمت. نظر إليها، وإلى الصورة، كاد إطار الصورة يتمزق فأسرعت في الدخول. الوجه مليح، والجسم نحيف، والعين واسعة، وبياضها يترجرج كموج بحيرة هادئ..

لم ير المشبك الذهبي الذي قدمه حين خطبت. وتنازعته رغبة دفينية ومشروعة في أن يمسك يدها، أن يقبض عليها ويلمس الدفء الذي غاب عنه عاما كاملا، وأن يحتوي بالعين نسائم القلب الأولى ورائحة الخد الجميل، أن يعلم أن الغربة صقلت وجدانه وأرهفته. وكان التروح من أجل بناء عش للمليحة الوجه يؤجج المشاعر على أتون من آلام الوجد وجفاف الغربة. وها هو الحلم يقترب ولم يبق إلا أن تعطر «واسعة العينين» جنبات المكان بعطرها المميز وروحها المتوثبة.

جلست ولم تسلم. آلمه ألا تمد يدها لتمسك يده بعد عام كامل وهو الذي يقاوم قلبه أن يأخذها بين ذراعيه ولو كان الجميع يحيطون بها، وليس ذلك الرجل ذو الثوب الأبيض الذي لا يعلم مشروعية وجوده.. جلست على طرف الأريكة تكاد تتداخل وعيناها ترتحيان على ملامس السجاد. لم يكف الرجل ذو الثوب الأبيض عن النظر إليها، وهو لم يبعد عينيه عن وجهها.. وظل يصطاد حركة عين منها ليتواجهها.. اجتاحه وجع في القلب.. وتساءل ما الذي يحدث؟. الرجل يتحرك في المكان بحرية يفنقدها هو، وهو ينتظر أن تنظر إليه نظرة خاصة. التزمت الصمت وسكنت عيناها ووشى الوجه بهم واضح.

وشت حركة الستارة بمقدم أحد ما، فاختلطت المناقير بالأوراق الخضراء. وحين رن التليفون اختطف الرجل السماعة وبدا عليه الاهتمام.. استند بكوعه إلى الصوان ثم ضحك، تمددت ضحكته حتى طالت كل شيء. أحس بغيظ شديد وهو يراه على طبيعته وكأنه في بيته. وهي كما هي انطفأت ولزمت الصمت. دخل والدها بصلعته العريضة فتمنى أن يفسر له ما يرى. تداخلت الرأس الصلعاء العريضة مع رأس الرجل ذات الشعر الأسود الغزير ثم ضحكا وانسحبا إلى الداخل. ضغط الصمت.. أراد أن يتحرك نحوها فلزمت طرف الأريكة ظل ينتظر نظرة خاصة. لم ير المشبك على الصدر. انفردت الستارة فلاحت المناقير حادة وبدا له الأمر غريبا وأن لا يستعصي على التفسير.

كانت البنت الحلوة خميلته وتعريشة حبه. ما بالها تداخلت وأخرست لسانها. كان وهو يمضي إليها يرقص القلب فرحا ويضح بالحياة. وتنظر إليه في وله ينهل كالقطر وتتساءل:

- من مثلنا في الحب؟ ويضيع - وهو يلمس بأصابعه الوجه المخملي - في رقرقة موج العين الأبيض ويقسم لها أنه ملك كنوز الدنيا، وحصل على قلب أخضر نادر الوجود.  
- ليس مثلنا أحد.

ويضحكان. ويحديق فيها، ويمد أصابعه تتلمس الشفتين فتضغطهما.

- عام واحد، أرحل فيه وأعود.. بعدها سنحقق ما نلحم به.

والآن تكاد النظرة الخرساء تقتله. إنه يستجدي منها نظرة واحدة. فمن الظلم أن تبخل عليه بنظرة خاصة بعد مضي عام بأكمله. لم تعد العين تستريح لمراه ولم تعد الرموش تسترخي على لمسة الكف، وترنيمة الصوت. ترى متى سمع هذه العبارة.. أضحك في عيني وأحميك برمشي.. لم يسمعها ولكنه قرأها في رسالتها الثانية له.

وانتفض، هب منتفضا ففزعت ووجد الرجل منتصبا أمامه.. انسحبت إلى الداخل مهرولة.. عاد الدماغ من سفرة الحلم، واستيقظ القلب من خدر طويل. وبدا كالمسوس فانقضت يداه على الرجل، جمع صدر الثوب كله في قبضة يده، فاحتقن الوجه وتكورت عيناه جاحظتين كعيني ضفدعة.. طارده الخوف ورزحت الغربة على صدره فارتجف بشدة.. فهو لم ينس الضفدعة حين لبدت في الشق وظلت تتوارى شيئا

فشيئا بين فكّي الثعبان. وصرخ صرخة عاتية. احتضنه الصديق وخلصه من رعبه ثم أفهمه فيما بعد طبيعة المكان. وبدأ يدور على الشقوق يطمسها بالأسمت، ويضع «الكيزان» المملوءة بالمياه تحت قوائم الأسرة خوفا من العقارب.

لم ينس ما كان يقوله في لحظة الهلع: "كل شيء يهون من أجل البنت الحلوة".

وكان يرتعش.. وظل يرتعش والأصابع تنقبض في موات:  
"من أنت؟" ..

خلص الرجل نفسه من قبضته، أدار رأسه فلم يرها، تساءل في ألم:  
- من أنت؟ ..

في هواده وسكون كالمغشي عليه آخذه الرجل من يده وجلسا. كان يجلس على الأريكة وهو يكاد يتداخل.. عاشق العين البحرية ينكفيء على نفسه ويصوب نظره إلى الأرض.

ينتصب الرجل أمامه، ويقول في حدة:

- ألا ترى أن الأمر منته!

ويأخذه حسه إلى عالم سحري زاخر بالألوان، الأبيض والأخضر والأزرق والأصفر. تتداخل الألوان أمام عينيه. فبشرة البنت الحلوة سمراء واللون الأبيض يأكل سمرتها.

قال الرجل فجأة:

- ولكن الأخضر المشجر يليق بها. حذق فيه مرتابا، ثم قال هازئا ومهموما:  
- ولكنني أميل إلى الأبيض.

ابتسم الرجل هازئا هو الآخر - فأطال عنقه إليه - رأى ملامح  
الشفقة تنداح على وجهه، فتساءل:

- كيف يحدث ما يراه الآن وكأنه كابوس أو مشهد رآه في حلم موصول  
بالخوف والفرع! وتذكر وهو يجهز لها كل شيء قبل أن يعود، فهاله كيف  
كانت اليد تمتد فتحيطف القماش وتحتضن البلوزة والجونلة والبنطلون  
والفستان الكامل.. كان يختار دائما اللون الأبيض بتمامه أو بدرجاته في  
فراغات المساحة. فالأبيض سيد الألوان، ملكها المتوج، قمة الجبال وتألّق  
الوهج، وشعاع القمر وخيط النجوم. وبياض عينيها الواسعتين، ويأخذه  
الخجل وهو يلملم ملابسها الداخلية.. ود لو جمع كل شيء.. فالبنت  
الحلوة تنتظر.. وهو ينتظر لا يزال ينتظر.. فهو لم يحصل على نظرة خاصة  
ولم يعرف ما يحدث.

عادت البنت منكسرة، تتقدم في حياء كأنما تود أن تعود، رآها لأول  
مرة تضع على رأسها شالا أسود اللون فتذكر نساء البلد التي عمل بها.  
لاح الوجه هامدا وخلا من دفء اللقاء وتكورت أصابعها ولم تنفرد. لم يمد  
يده إليها واكتفى بالرؤية والمتابعة.

كان جسمها يجب في فستان طويل. لم يتذكر إن كان رآها على  
هيئتها أم أنها غيرت ملابسها، لكن الوجه لا يزال واشيا بألم ومعاناة.  
وضعت رأسها على يدها، وكوعها على فخذها، وعينيها فوق وجهه. هذه

المرّة تنظر إليه ولكن عينيها تدوران وتقفان على حافة إطار الصورة. كان المشبك زاهيا. رفعت يدها فجأة ولمست صدرها. وكان الصدر خاليا من المشبك.. أحس برجفة قلبها حين اختلجت العين. لا يمكن أن تنسى ارتعاشتها الفرحة وهو يضع بنفسه المشبك على الصدر. كانت حلاوة الدنيا في لمسات أصابعه ولاحت في العين البحرية زوراق الغد الجميل. ولم يخف انطباق الجفن شعورا بالخبية.

وتمتت الشفة المراوغة بكلمة «أحبك». في تلك الليلة أخذها إلى شاطئ النيل، شاركهما النيل فرحتهما. حنا الموج عليهما وطوقهما النسيم الليلي بقلادة من السعادة. وصحا الألق في العيون مبهرا.

أحاط كفها الرقيق وقال:

- أحبك. وهمست فطير النسيم صوتها:

- كأنني في حلم.

- ابتسم فابتسمت فقال:

- أود لو نسرع الليلة. وتمتت حياءً:

- إلى أين.

حدق في العين وضغط على جلد الكف الرقيق:

- إلى بيت يضمنا. ولكن أين هو؟

تنخفض العين وتسدل الأهداب الطويلة ظلها ثم تقبض بيديها  
كلتيهما على كفه وتقول:

- الحب فوق كل شيء.

الحب فوق كل شيء.. كان المفتاح في الرسالة الأولى، وفي الرسالة الثانية جاءت العبارة تحت هامش ملحوظة مهمة، وفي الثالثة والأخيرة بحث عنها فلم يجدها.. كان يدرك أن الشقة الصغيرة تحل المشكلة، وأن عاما في الغربة كفيف بالأعباء، وأن الحب فوق كل شيء وأن المال يجرسه ليبقى.. ولكنها الآن أمامه كالعود قارب على الجفاف، وأصابعها تضغط على الجبهة وتمر في خفة على الصدر وتمرق عيناها إلى الستارة، كان الرجل خلفها.. أطال رأسه ونظر إليها مستجديا وتمتم:

- اشتقت إليك.. كان عاما قاسيا عليا.

..... -

- نستطيع الليلة أن نمضي.. وأن يضمنا بيت..

..... -

- لن نخاف على حينا بعد اليوم.

وتنهض البنت فجأة. تتجه إلى الصورة وتضع يدها على المشبك. تحس بضيق في التنفس تفك صديرية الفستان.. تحتنق.. تصرخ. وتنفرج الستارة. يهرول الرجل ذو الثوب الأبيض ويكاد ينكفيء الأب الأصلع في حين فردت الأم ذراعها تحتضن البنت.. صب الجميع نظراتهم عليه.. أخذوا البنت ودخلوا. لاحت الستارة بيضاء كالعهن واختفت الأوراق الخضراء والرؤوس وبقيت المناقير.. انسل كل شيء وبقي وحيدا.

أحس أنه دخل نفقا معتما، تصكه الأصوات وتحنقه الهوام حتى كاد  
الظلام أن يغتاله.. الأصابع السوداء تضغط في شدة حول العنق، والظلال  
المعتمة تلفه كالطفل في قماطه المشدود.

برقت العين في حلقة الظلام فلاح له الوجه غاضبا وبدا الشوب  
الأبيض شديد السواد.

أفاق مذعورا على جذبة شديدة فوجده أمامه مستترا ودخان  
«الباب» يتصاعد هاربا من أتون النار. قاده إلى الأريكة وأقعده في غل.  
لبد في نفسه على حين راح الرجل يحدق فيه. أشار إليه أن ينظر إلى الصورة  
جيدا. كان إطار الصورة ذهبيا، وشعر البنت منسدل على الكتف،  
والوردة الحمراء تدفيء الصدر، وفص الماس يضوي في الإصبع المستكن  
على الفخذ المزموم.. داهمه الأمر فظل محدقا، كيف لم يلحظ الأمر. ترى  
هل غطى هواها على عينه فلم ير إلا ما يجب!!

كيف لم يلحظ الرجل ذو الشوب الأبيض وهو يقف بجانبها واضعا  
يده على الكتف؟.. كانت دوائر الدخان تحنقه.. انتزع بصره وصوبه إلى  
الرجل وقال في هزيمة ممرورة:

- لقد قتلتني.

ظل يدخن، وهو ينظر إليه، والمبسم لا يفارق فمه.

- وقتلتها أيضا.. أنت وأبوها وأمها.. كلكم قتلة.

رد عليه باستخفاف بارد:

- لقد رأيت بنفسك.

وينهض متجها إلى الصورة.. كاد يمهد يده لينتزعها من الإطار ويمضي بها، لولا هذه النظرة المنبعثة منها توحى بالهزيمة.

- ليست هي التي عرفت.. لقد حولتموها إلى مسخ.. في غيبة عام واحد حدث، ماذا يمكن أن يحدث لو طالت الغربة أعواما.

- لقد رأيت بنفسك.

اجتاحه انفعال شديد وظل يردد «كان يجب أن أعرف». قبل أن آتي «كان يجب أن أعرف».. ولكنها لم تتكلم.. فات أوان الكلام.. دهم الفعل القول.. ليتها قالت شيئا.. لم تقل له كلمة واحدة.. التزمت الصمت وأصابها الحرس.. عرفها مغرمة بالحديث تستولد قدرا لا ينقطع من الكلام.. تصدح بالحديث كما تصدح العصافير. حين رآته يقفز هربا من محاولتها الإمساك به كانت تقفز حول القفص. وظلت تلف حتى أوقفها. مدت يدها ثانية.. تسلل الإصبع في نعومة وظلت تنتظر منقاره الصغير المدب.. كانت تتخدر وهو ينقر اللحم في خلسة وخفة.. وتلمس في وداعة صمت يوحى بالفرح.

- لو كنا عصفورين.

ويحيطها بذراعيه.. ويناجيها بعينه.. يصلها السؤال ملفوفا بدفء القلب.. تلف حول نفسها، وحول القفص، لا تبالي بأحد. تحدثت عما كان يريد أن يسأل:

- كنا نقفز من شجرة إلى شجرة، نخط حيشما نحب، يسترنا ورق الشجر،  
ويروينا قطر الندى.

ويضحك زاعقا فرفرف العصفور مبتعدا

- أي غصن يتحملنا.

وتبتسم البنت الحلوة، ويتمايل جذعها كتحلة مترعة يطن منها  
صوت راعش بالحب:

- من يجب يخف ويصبح كالريشة.

- وكيف أمسك به إذا طرت؟

- وكيف تطير الريشة؟

- إذا أخذها الهواء العاصف.

تمد إصبعها فتلامس الشفة:

- لن يقدر عليّ.

ويعلو صوتها، ويرتج المكان من شدة الصوت ويرفرف العصفور  
متعجبا وينظر إليها في خلسة وهي تفرد ذراعيها بقوة الصوت.

- أنا أحب.. أنا أحب.

خاف عليها وخشي على نفسه من الحسد.. كل هذا الحب مرة  
واحدة - الآن يطمئن - لقد ملك كنوز الدنيا حين امتلك القلب

الأخضر. أحس بالراحة فالبت لن تبيعه بأموال الدنيا كلها. هي تعلم ظروفه - تجبه بظروفه. لكنها لم تكف عن الحلم الصعب.

- لو نعثر على شقة صغيرة.. شقة صغيرة يا رب.

وهو بلهفة الحب يسعى إلى البعيد لعله يحقق الحلم الصعب. يجهز الأوراق الخاصة ويندفع إلى الأرض العراء برمالها الصفراء القاسية وجبالها الموحشة. وحمل معه القلب الأخضر. نشر الوجه فوق كل الوجوه.. وعاد وفي قلبه أمل يترعرع.

ولكنه الآن يتسرب كالهباء.. وشعر بألم شديد ونظر إلى الرجل مهروس القلب. كز الرجل على مبسم «البايب»، وقال:

- لقد رأيت بنفسك.

الرجل ذو الثوب الأبيض يرتدي حلة سمراء أنيقة، وهي بجانبه تأكل وجهها ضحكة مترعة.. تعددت الصور. ها هي تمد يدها إليه بكأس من الشراب هي نفسها من عام كامل قدمت له نفس الكأس. كيف اتاها قلبها أن تفعل ذلك؟.. لقد ناولته الكأس في خفقة حب نادرة.. هل كررتها مرة ثانية!! ترتشف البنت رشفة خفيفة عبر حافة الكأس.

كانت البسمة واضحة. كيف لم يلحظ هذا؟. كانت آلة التصوير تضوي بالأنوار. والكأس في يدها يعكس الضوء في إبهام، وهي تدور كالمخدرة تريق الفرح حولها.. كيف لها أن تقدم الكأس للرجل ذي الثوب الأبيض.. «إنه كأسى أنا، أنا الأول».. وينهض كمجنون عيناه تلتمعان ويدها ترتعشان.. يتجه إلى الجدار يمد يده وينتزع الكأس ويصرخ:

– هذا الكأس كأسى.

مسكه في يده وأراق الشراب. وظل يقبض عليه حتى انغرست  
الرءوس الحادة في اللحم. تعكر الأبيض بالأحمر.. وساد الأحمر كل شيء..  
الثياب والوجوه والسجاد والجدران والعيون.. وصاح في حدة قبل أن  
يتهاوى.. قال: إن الأبيض سيد الألوان.

## تداعيات حزينة

(١)

لم تمهله، ألقت في وجهه بالخبر وانسحبت إلى المطبخ. دار حول نفسه دورتين ثم ألقى بالحقيبة ودخل. ألفاها راقدة على سريرها الصغير. أحست به فابتسمت، حملت بسمتها إليه رعدة داخلية فجلس بجانبها، وضع يده على جبهتها، فأغلقت عينيها وبانت أهدابها طويلة، انحنى وقبلها. مدت يدها وتعلقت به.. لمح احمرارا في العين، واحتقاننا في الأنف. تحسست أصابعه رقبته وتوقفت. حدس أنها اللوز.. أو أن نزلة البرد شديدة.. أخرج الشيكولاتة ووضعها في يدها. وكانت أصابعها رقيقة رهيبة تكاد تنقصف وهي تضغط عليها. أحكم حولها الغطاء.. لمح عروستها مرمية بجانبها ابتسم وهو يميل عليها:

- كنت ملهوفة عليها.

انفرت شفتها واهنتين:

- ولكنني كبرت.

ضحك وفرحة طاغية كست وجهه كله.. هي فرحته. وشجرتة، وهي الأمل يملاً حياته ويغطي على الفراغ كله، ويزرع فوق جدران الصمت نباتات خضراء.. أدار رأسه فزاحته صورة الزفاف فنهض مستفزاً، يذكر أنه لم ينظر إلى الصورة منذ زمن طويل.

أوجعته البسمة والرقعة، واليد المضمومة، وباقة الورد بين الأصابع.  
وأذهلته النظرة المنطفئة التي لم يلحظها من قبل. وأدهشه الشعر الأسود  
المنساب على الكتفين كجدائل الصفصاف، فتعجب كيف يتجمد مثل هذا  
الشعر ويصير بلون التراب؟

أطل في المرآة فجاءته الشعيرات البيضاء، زم شفتيه، ولمس جبهته.  
أدرك أن الخيوط تفور وتمتد، وأن الزمن يهبط بثقل واضح.. وأنه قد لا  
يجود بحياة جديدة مرة أخرى.. وعاد إليها وهو يتمتم وعيناها لا تفارقانه:

- سبع سنوات.

أسرعت في وهن وقالت:

- عمري!!

ربت على جبينها، ومسح شعرها. كان شعرها الأصفر الطويل  
مدفوسا تحت الفراش فمسك خصلة صغيرة وتحسسها. كانت تبدو طرية  
بين أصابعها. حركت فيه حبا مخزونا وشوقا غائبا. أدرك الآن أنها حبه  
وشوقه. منذ حملت أمها فيها وشوقه إليها يزداد. كانت الأم تكره أن تجيء  
البنات.. تكره أن تجيء بأى شيء.. كانت صامتة حزينة، وكان صمتها يملأ  
البيت ويقتله.. وظل هو حائرا فيما يرى.. ويلمس.. وأد القلق والتوتر  
والخوف والشك.. وانتظر.. حتى جاءت البنات فصارت حبه وشوقه.. مال  
عليها ووضع وجهها كله بين يديه.. شرب عينيها وأنفها، وذقها،  
وشفتيها.. وقلبها وضحك.. وبدت الضحكة باهرة كفلقة البدر:

- ست سنوات!! أصبحت عروسة.

فضت غلاف الشيكولاتة ووضعتها على فمها.. بللتها، ولحستها، ثم  
سحبها أسنانها.. وتوقفت.. نظرت إليه وقالت:

– تأخذ يا بابا.

تناولها من يدها ومال عليها، أعاد وضعها بين الأسنان فضحكت  
وقمنعت:

– عودتني أن تأخذ منها حبة.

– ليس الآن.

– ولكنك عودتني. قطع بين أسنانه قطعة صغيرة ثم أعطاها لها. بقيت  
القطعة في فمه ساكنة، وذابت في بطنه، وظلت القطعة بين أصابعها حتى  
ساحت وعلقت بالأصابع. مسح أصابعها ونهض. بحث عن ليمونة فلم يجد.  
أصابه هم مباغت فما من شيء بحث عنه ووجد.

(٢)

لم تمهله حتى يستريح. كانت عصبية، قلقة، متسخة الشياب والوجه،  
ورائحة المطبخ تعلو على كل شيء، تلاشت رائحتها وسط دخان المطبخ  
«وهباب» الموقد. لم يفته الضعف الطارئ بالأكل، ولم ينس قائمة الطعام،  
ولا المصاريف الشهرية، ولا الولع بكل شيء تراه عند الآخرين.. ويفتقده  
بيتهم الصغير.

كانت يوما تجيد التطريز، ترسم الأشكال الجميلة في إطار من البهجة  
والفرح.. وكانت تهتم بجواف الأشياء.. ولاح ولعها يتبدى وهي تحدد

الفراغات في جسم الأوراق وكأس الزهور.. وتميل الرأس إلى الصدر في تأمل حذر، والعين تحدق في لمعة مخيفة، والأصابع تنضم في حركة دعوب كدودة تحشى على نفسها حقبة التحول فتسرع في الإفراز. كان يلاحظ الفراغات تتسع، والأشكال الزخرفية تتداخل، حتى بدت الخطوط والخيوط مفتوحة على اتساعها، وبدا الفراغ هائلا.. لم يرق له الأمر.. كان يدخل يده كلها وسط الفراغ عساها تحتج، أو تدرك أن الأمر غير طبيعي. وأن الصمت وراء الفراغ. ولكنها لا تتغير، تظل أصابعها تفرز الخيط، حتى خصلة شعرها المرمية على صدرها لا تهتم بما.. وبدأ شعرها يأخذ لون الحناء الباهت، أطرافه مهوشة. مقصوفة، مغبرة كالتراب.. وكان الفراغ ثقيلًا ضاغظًا تسمع صوته يتسلل في كل مكان.. يجتاحه شعور قابض بأن أمرا غريبا يطوف حولهما ويعكر صوتهما، أين هذا الصمت من طراوه البداية وليونة القلب. وارتحاء الجفن على رعدة الحياة!.. فضل ألا يسأل حتى لا يفتح بابا تنسل منه الريح عاتية تقصف بما بقي في القلب، والقلب موجوع.. والأمل أن ترفرف في البيت فراشة تقطع بأزيزها ثقل الصمت، وتملأ الفراغ..

(٣)

توجه إلى المطبخ، كانت مشغولة، وكان الزيت يحرق دوائر البطاطس، نفس الرائحة، رائحة الزيت المحترق التي تجابهه وهو يصعد السلم.. ارتفق الباب وصمت، نظرت إليه ثم استدارت وأمسكت بالسكين، وامتلاً الطبق بقطع الطماطم، ذكرته باحتقان ابنته وحمرة شفيتها، فنطق في غضب:

– ألم أنه أن البيت لا يخلو من الليمون.

التفتت إليه ولم تنطق، صوبت بصرها إلى الموقد، ومدت يدها وقلبت البطاطس ولم تنطق. وكانت القطع تنهي في الزيت الساخن طراوتها، وبان الاحمرار في الطرف والتبيس في القلب، فأدرك أن ثمة احتراقها أصابهما.. وأن القلب ليس موجوعا فقط بل ومتيسا أيضا.. خبت النيران وبقي البخار صاعدا يحمل رائحة الاحتراق ويحملها ليملاً البيت، ويتلرق إلى السلام يستقبله ككل يوم.

– منذ متى.

– أمس.

– ولم تخبريني إلى الآن.

كبت عليه نظرة واسعة وثابتة، ثم شدت نفسها ووقفت على أطراف أصابعها. كان صدرها نافرا، ووجها متسخا، وبان في رقبتها اكتناز مشدود، وبدت ساقاها مبرومتين، تذكر أنه لم يقربها من مدة، وأن الرغبة لا تواتيه وأنها هي أيضا لا تساعد.. وضعت الطبق وبدأت تغرف.

– أتأكل والبنت مريضة!

توقفت، وصمتت، تقلصت أصابعه، ولم تنظر إليه، أدخل أصابعه في فتحة البنطلون وقال في غيظ لم تفتها حدثه:

– كان الليمون يسعفها.

– ولكنها هذه المرة ضعيفة.. واللوز متضخمة.

تحسس لوزة، وتذكر أن العائلة كلها أصيبت بها.. وطافت على ذهنه صورته وهو راقد على السرير وخدر البنج يضغط على أعصابه كلها.. وهي بجانبه.. جاءت تزوره.. ولم تنطق بكلمة، كان الآخرون يبدون الاهتمام، وهي لا تنطق، ولا تنهض عن مجلسها، حتى استفزته فطلب منها أن تمضي.. فمضت من مجلسها ومضت دون أن تنطق.. وأخذته رجفة مباغته:

– ألا يفيدها الليمون؟

– أليس عندك غير الليمون؟

– ولكنه مفيد في البرد.. رمت بالمعلقة على حافة الطاولة، فسقطت وأحدثت دويًا.

– البنت يجب أن تذهب إلى الطبيب.

مد يده وأخذ قطعة من البطاطس، جرشها وتناول ثانية. مسكت المعلقة وبدأت تغرف، جذبته حركة المعلقة فتنبه لدورة الحركة، وتابعها وهي تغوص في الإناء وتترلق في الطبق وتتساقط قطرات على الأرض، وفوق الموقد.. أخذ قطعة أخرى وأبقاها بين أصبعيه.

– ولكنها نزلة برد. توقفت حركتها ورمقته في غل، فأسرع وجرش بأسنانه القطعة:

– مما تخشى! اهتز ومسح أصبعه في ملابسه، لم تفتتها الحركة فقلصت شفيتها، ولم تفتته الحركة فحدق في وجهها.

- ألا يفيدها المضاد!

- الطيب.

وكنتم انفعاله. أحس أنه لو زاد كلمة لانفجر الموقر، وصدعته بنكدها. وانسحب وهو مشغول. كيف يدبر الأمر لو أشار الطيب بإجراء العملية!. ولكنها البنت الشجرة، والبسمة، والأمل الباقي له.. والقلب الموجوع لا يعجز عن تدبير الأمر.

(٤)

كاد يقترب منها في لهفة، لولا أنها أزاحتها. كانت عيناها تنضجان بخوف شديد، وكانت عيناها يلعب فيهما فرح مفاجئ. وضعت يدها على بطنها، فتصور الحلم حقيقة.. لاصقها ومسك يديها الاثنتين. أطبقت عينيها وأغفت في إعياء. كانت الرعشة المكتومة تسيطر على وجهها الأسمر الطفولي وتجتاحه. وكان هو يحلم بميلاد جديد، قد تتجدد معه الحياة، ولكنها لم تبد تلهفا، كان البرود يكسو ملامحها المرتعشة، كأنما داخلها شيء منفصل عنها. وكانت اللامبالاة رغم الألم تقتل في داخله حسا يتلظى بالدفء.. أدرك للحظة أنها قد ترفض الجديد المزاحم فأصابه هول.. كان يمني النفس بأن إعادة التجربة قد لا تحمل أملا أفضل، فركز أمله في البشارة التي توحى بقطر كقطر الندى فوق كتوس الورود. ومن يدري فقد يزداد حتى يغتسلا به.. ولم يصدق أن امرأة ترفض الخصوبة والامتداد، أول الأمر على أنه دلالة، رغم أنه لم ير منها إلا الصمت والخرس. أسندت

جذعها بيديها ورفعت رأسها وصوبت نظرها إليه، وقالت في حقد لاحت  
منها شراسة لم يطقها:

- لا أريده.

- أعرف.. ولكن لم؟

- جاء سريعا والرضى بالواقع ظلم.

- أنتخشين على نفسك منه؟

- وعليك أيضا.

وكومت نفسها، وخرج الصوت منها، مبحوحا، مجروحا، مدما:

- أخشى أن نعيش حياتنا مضطرين.

كان الصوت نصلا غاص في القلب وشطره.

منذا الذي يجبر الإنسان أن يعيش مضطرا؟ هل جاءنا الخواء فجأة،  
وهبط علينا ناسجا خيطه المترع بلزوجة الصمت والبعد والفراغ!! أم كان  
نبته مستورة طمرها الوهج الأول في ربيع الأيام الأولى!! أم أننا أسرعنا في  
اللقاء، وهشنا في الزواج، وذابت منا حرارة الدفء والوصال.. وحل  
الصمت جدارا صلدا ترحف عليه الرغبات الموءودة.

وبدا حائرا وقلقا، لم يتحدث إليها، انسحب يدارى همّه وقلقه  
وتعاسته.. كان شيء ما يدرج معهما في الخطو، واللقاء لم يكن قويا، لكنه  
كان موجودا، كان يسمعان ديبه، أكان ضعيفا فلم يقو على النماء؟! أم

تحول إلى حركات الإبرة تنسج الخيوط والفراغ؟! أم لاذ بالمطبخ يكتوي  
برائحة الزيت المحترق!؟

وظل الفراغ قائما، حتى إذا جاءت البنت على مضض، تزايد  
الفراغ، وتلفع الصمت بالشراسة.. ولكن قلبه هو.. اتسع، واتسع، حتى  
احتوى البنت، ومن لحظتها، أصبحت شجرتة، وظله، وتعريشة الحب في  
حياته.. وظلت هي.. كما هي.. تضيع ساعات عمرها بين المطبخ..  
والصمت.

بحث عن الأسبرين، وأحضر كوب الماء، مسك الملعقة وأذاب الحبة.  
ودخل، رآته ابنته فأسرعت تقول:

- بابا.. أنت قلت أنني كبرت. جلس ووضع الكوب على الطاولة  
الصغيرة:

- نعم يا حبيبي.. كبرت، وستدخلين المدرسة، وتصبحين تلميذة شاطرة.

- وستوصلني.

- نعم..

- وتشتري لي حقيبة جميلة.

- وسأشتري لك حقيبة بأربعة جيوب وسوستة.

- ولونها بني..

- سيكون أخضر..

- ولكن أحب النبي..

- وأنا أحب الأخضر.. مدت يدها الصغيرة، وفردت أصابعها، أدارت رأسها كلها ناحيته، بدت جادة في ملامحها، ولكن الضحكة الواهنة كانت مضغوطة بين أسنانها.

- أهو أمر يا بابا.

ضحك زاعقا فارتجت زوجته، ودخلت، أشارت إلى أمها فاقتربت:

- ماما سأدخل المدرسة قعدت أمها بجانبها.

سوّت فراشها. وربتت عليها.

- وسيشتري لي حقيبة.. ولكنه يريد خضراء وأريدها بنية.

نظر إليها، ونظر إلى أمها، ولمح من بعيد صورة الزفاف، أوجعته البسمة والرقّة واليد المضمومة، وبقاّة الورد بين الأصابع. والنظرة المنطفئة.. و.. وتناول كوب الماء. أمال رأس البنت ووضعته على فمها.. شربته في نفور:

- كل ذلك لا يفيد.

- قد تتحسن.

نفضت ونظرت إلى ابنتها، ونظرت إليه.. ولخت صورة الزفاف، فرمت شفيتها، وطوحت بيدها، كان في عينيها غضب، وعلى شفيتها ارتعاشة، وعلى جبهتها تغضن واضح، وبين أصابعها بقايا ليمونة ممصومة.

- لو تفعل ما يفعلون ما حملت هما.

أحاط ابنته بذراعيه وظل صامتا.. لم يفته تلميحها له بقلة الدخل، ولم ينس إلحاحها عليه بأن يفعل ما يفعله الآخرون.. ولكنه لا يريد أن يسلك الطريق الوعر.. فمن يضمن له - لو حدث له مكروه ولا بد سيحدث - أن تعيش ابنته تحت تعريشة الحب التي حلم بها يوما.. وهو غائب عنها.. لم يرها يوما مثل الأمهات تغزل الخيوط قماشاً، وتصنع القماش ثياباً. وتطرز الشيا ب ورودا.. لم ير الألق.. ولا الحنان.. ولا الدفء ينداح من العين.. لم ير اليد تبسط الكف على البطن في حب.. تداعب الجنين.. وتماشي حركته.. فمن يضمن للبت تعريشة للحب.. ضغط بذراعيه على البنت.. فهي العالم والجنة والملاذ.. إنها البنت، الشجرة، والبسمة والأمل الباقي.. والقلب المودع لا يعجز عن تدبير الأمر.



## التجاعيد

كان الميدان غاصا مرتجفا والأجسام معصورة ومسلوبة، والدوري  
يخرق الأذن، ويرجف القلب، ويرعش العين، والأسفلت التوى وتشقق  
وسحب بطن الأرض وتكور، يصطدم بالأرجل ويوقع بالناس في تربص،  
والقيظ الشديد يرمي على العيون البلادة وعلى النفوس الكآبة.. وأنا أدور  
بعربتي باحثا عن مكان. الأرضفة موطوءة، ومبقورة، ولا مكان لقدم.  
يتدافع الناس أمامي وحوالي كمن أصابهم المس، لا ييالون بحفرة، ولا  
يهتمون بشيء وكأنما يساقون في مدار لا تراه، ولا نهاية له.. وأنا أنور  
وأدور، والبت تلبد بجانبني خائفة مذعورة.. اخترقها الميدان فأطبقت  
عينها، وارتخت رموشها السوداء الطويلة ارتخاء شعرها الناعم الطويل..  
وأدور بعربتي فوق بقايا الشارع المبقور، وتواجهني لافتة الممنوع..  
والعربات متراصة من حولها وخلفها وأمامها.. وأنظر إلى البنت، وينساب  
إلى داخلي في ألم تقلصات البنت، وتوتر ملامحها.. فوأدت رغبة البحث عن  
مكان آخر.. ووقفت في الممنوع.. فإن ترى الممنوع مباحا وبمسافة  
عريضة.. يغريك بالافتداء والوقوع في أسر المخالفة.. ووقفت في الممنوع.

وترتجف أصابع البنت الدقيقة في يدي، ويرتعش باطن كفي، ورأسها  
تلفت في كل اتجاه، لاصقتني في دهشة.. وفتحت عينين مدهوشتين، ولاح  
لي نبي عينها الأخضر الحلو قلقا حائرا، فطوقتها بذراعي، وتلصصت

عينها إلى المريثات المرعوشة المتداخلة. فازداد التصاقها بي، حتى خيل إلي أنها تود أن تدخل في.

ونعبر الطريق، وندور حول الميدان، ونختلط بالأجسام. وتتكدس ملامح البنت، ونعتلي الدرج، وندور معه.. أصبح الميدان أسفل منا.. والبنت تطل عليه من وراء السياج، وتدبذب بقدميها فوقه في غل وكأنا لا تصدق أنها فلتت بخير.

ثمة غربة تجتاح عين البنت، فعالمها صغير، صغير، وما تراه هول وهول.. ويشيع في ملامحها انكسار، فتسلم قدميها إلي. وندلف إلى داخل البناية الشاهقة، ونقف أمام عيادة طبيب الأطفال.

كانت العيادة غاصة وممتلئة، بلمحة خاطفة أدركت ألا مكان لقدم، وداخلي استنكار خفي، فتأكدت من اللافتة، ومن اسم الطبيب، ومن لون الباب، ومن رقم الشقة المجاورة. ومن دلايات النور.. كان الزحام في العيادة غريبا علي، فما تعودت أن نرى عنده كل هؤلاء المرضى وأتباعهم.

وأخرج جنيهين، وأطلب من الممرض أن يحجز دورا.. ويدير الممرض رأسه مستنكرا، ويرفع بصره نحو الحائط المواجه، ويشير بعينه، ويوميء برسه، ويعاود جلسته دون أن ينطلق، فقد كانت عينه تتكلم وتنوب عن لسانه.. كانت قائمة الكشف تحدث في تحد، وكادت الأرقام تفلت من إطارها لتصفعني.. وتمتد يدي بلا وعي وتكمل الجنيهات الخمسة ويسقط الممرض كفه، كانت اليد قدرة والوجه كالحا. وأدور ببصري في المكان.. تواجهني قصيدة منظومة، وموضوعة في إطار مذهب، يتحدث بيت فيها عن

رحمة الطفل ويصفه بالنطاسي البارع.. وكانت عيون الأطفال الذابلة  
وملامحهم المتعبة تصيب الكبار بهم رازح على الوجه وفي القلب..  
وأدرك أن ثمة شيئاً راشحاً في الداخل يجبر الكبار على الدفع والأطباء  
على القبض.. عملية صامتة تدمدم بالداخل، ولا تقوى على الرفض. ولكن  
العيون تفضحها.

والجدران متسخة، والطلاء قديم، والحدوش متقاطعة، والأكلمة  
مغبرة، والكبار يبحثون عن دورة مياه نظيفة، والأمهات يبحثن عن ماء  
بارد يبيل الحلق في قيظ الحر، والزحام شديد يفتق العين، ويدهش العقل..  
وأحدق في الممرض، هزيل، ضئيل، الوجه مزمووم، والعين بليدة، والأذن  
مقطوعة لا تلي طلبا.. والأطفال يهمهون، يتوجعون، ورأسه مرفوعة،  
وعينه على السقف، وأذنه مع الجرس، ويده على القلم.. وجمع الكبار  
يرمقونه في غل، فالجنيهات تتساقط، والإكراميات تزداد.. وهو كما هو  
أذن مقطوعة إلا من رنة جرس، أو صوت الطبيب.

في زيارتي السابقة لم يكن الأمر بهذا السوء، كان المرضى قليلين،  
والأرائك نظيفة والماء متوافراً، والحاجة مقضية.. وكان الممرض شاباً صغيراً  
وثاباً، لم يبخل عليه أحد، بالرغم من كثرة مطالبه.. وأحدق في الوجوه،  
والأيدي التي تروّح عن نفسها من شدة الحر، ويمتد الوقت، ويتمدد فوق  
الشفاه والوجوه والعيون.. ويأخذني بعيداً بعيداً.. كنت أتردد مع والسدي  
على طبيب مشهور في الأعصاب، في البدء كان الأمر صعباً، والزحام  
شديداً، والحجز يحتاج إلى وقت طويل وصبر أطول.. وكانت الممرضة

الحسنة تجلس إلى مكتبها في تطلع وكبرياء.. جميلة يكاد وجهها المشرب بحمرة حقيقية يسحب ناظريك غصبا.. إذا سارت اختالت، ونهرع وراءها نستجديها موعدا قريبا.. وهي.. ضحوك مستبشرة يتنامى صوتها همسا كأنها تحادثك على انفراد «وقتي مشغول..» ونحن نلح. وهي تستعذب الإلحاح، وتضحك، ثم تلمس لنا جميعا «من أين أجد الوقت لكم جميعا؟!».. ونلح، وتضحك والبسمة تترقق في وهن عل شفاه المرضى، وقلوب الأصحاء المصاحبين تنتفض نبضا.. وكنا ندفع بالجنه، تلو الجنه، وكانت تدسه في الجيب، وتضعه في الصدر.. وتبتسم، وتطوف بسمتها كغلالة من العطر الفواح.. وتبدو السكينة على ملامح المرضى.

وكان الطبيب المشهور لا يتقاضى أجرا كبيرا. إنه يكاد يقارب ما تأخذه ممرضته الحسنة.. علق البعض ساخرا.. إنهما يتقاسمان.. وحين دخلت مع والدي إلى الطبيب، وجدته شيخا وقورا.. ضاحك وهو يؤدي واجبه، ويتسم وهو يحرك المطرقة على حزم الأعصاب، ويسأل الوالد عن مباشرته مع الوالدة.. ويضحك عاليا حين يخبره الوالد بأن الكريم لا يضام.. ويشع وجهها عبر الباب جمالا لا تقوى عليه قلوب المرضى.. وكان قلب والدي موجوعا، ولم يملك زمامه، فازدادت دقاته، وتركزت عيونته.. والطبيب يتسم ويوجه كلامه إلي قاتلا:

- ألم أقل لك إن قلبه صحيح وأعصابه سليمة، بل هو عفي.. طمئن الوالدة.

وذهلت حين دفعت نصف جنيه ثمنا للدواء، وأصابني هاجس خفي أن تكون الممرضة الحسنة مصيدة للعجزة، ومرضى الأعصاب، وذوي القلوب الموجوعة.. وكاد ينمحي إحساسي الجميل تجاه الطبيب وممرضته الحسنة، لولا أنني لاحظت على والذي تحسنا.. فحمدت الله على الشفاء، ولكن والذي همس لي في تودد: "ألا يصح أن نستشير الطبيب؟"، وأدفعه بيدي ضاحكا، الطبيب أم الممرضة.. وبضحك والذي، وتضحك والذي، وكانت ضحكتها رائقة كقطر الندى البارد لف فم الظمان.. كانت الأيام حلوة، وكان رحيقها مختوما لم يدنس.. و..

وانتبه حين ضغطت البنت على يدي. والممرض ينهني أن دوري حان. وأخلع نفسي وذاكرتي وأدخل. فهض الطبيب وحياني، ربت على خد البنت فانكمشت وغاصت حياءً.. كان حياؤها خمري اللون، فهان لدي كل شيء.. فحصها وطمأنني. أفهمني أن الأمر ليسير، وأن الحلق سسيراً، وأن الموضوع في أيدينا، وأن الليمون مفيد، وأن الغرغرة تقتل الميكروب وأن الدواء المكتوب سيفي بالمطلوب، فأراحني وأزاح عن صدري قلقلًا كان ينشب فيه وارتفق الطبيب مكتبه وأشعل سيجارة، وتحديث في عفوية. وأصابعه تبحث عن القلم:

– أحب أن أدون بعض المعلومات.. أنت تعلم أنها مفيدة في تكوين الصورة العامة للمريض.

مسك القلم وفرد الورقة:

– ليس الداء بذى بال، المهم هو حالة المريض.. الوضع الاجتماعي.. مثلاً.

أزاح الكرسي قليلا فلاحت بطنه مكتنزة.

- الأصل في الوضع الاجتماعي أنه يساعد في جودة الأداء..

ضحك حين رأي أحدق فيه مندهشا:

- هذه الأيام لا نعالج المرض العضوي فقط، بل والنفسي أيضا.

قاطعته مسرعا خشية أن يستمر:

- وهل لذلك ضرورة في التهاب الحلق.

كانت ضحكته زاعقة، حتى خيل إلي أن الباب فتح، وأن الممرض  
البعيض أطل منه.

- بالطبع.. خذ عندك.. التكييف في الصيف، يعادل ضرر المدفئة في  
الشتاء.. كلاهما سبب قوي لالتهاب الحلق ونزلات البرد.. ولا تنس  
القدرة على شراء الفواكه، والحمضيات، والمضادات.. و.. واستشارة  
الطبيب كلما طرأ جديد على الصحة العامة.

وابتسم ابتسامة ضيقة، سحبت شفثيه وزمتهما:

- ألا ترى.. كم هو مهم.. الوضع الاجتماعي.

أصابني خرس مفاجئ، تذكرت الأطفال في الخارج، والألم على وجوه  
الآباء، وغازني أن يكون الوضع الاجتماعي لهم عاديا بل ومهيئا، وأنه في  
مرض الصغار، يستوي الغني والفقير فالمرض يغتاهم جميعا، والطبيب  
يبتسم.. كدت أنهض مهروس القلب لولا أنه فاجأني:

- قلت لي، إنك مدرس.

- نعم.. أنا مدرس.

- إنني أدفع خمسة جنيهاً كاملة.. لقاء ساعة واحدة.

واقترب منه، وأتملى وجهه، وأثبت عيني عليه.. ويشيح بوجهه، ويرتفق المقعد:

- أنت مدرس.. ولا بد أنك تفهم.

- أفهم.. ولكنني لا أفعله.

وأخرج الطبيب قرص نعناع وأعطاه للبننت، تناولت البننت القرص وعيناها تحتلجان، ناولني قرصاً آخر، فظل لا بدداً في تجويف الفم لا يتحرك.

- أنت مخطيء.. وكيف تعيش في هذا الزمان؟

يحملني عبء الجابة الصعبة ويذكرني بزواجتي، وهي تدفعني دفعا إلى فعله.. فالحياة قاسية لا ترحم، ونحن لسنا أقل من الآخرين، وأنت لست أقل من غيرك من المدرسين، فالشقة تحتاج إلى طلاء جديد، والتليفزيون الملون غزا القرى، وموقد البوتاجاز ذو العيون الست، يجتاح البيوت، وموكيت الردهة بهت لونه، وجارتنا تلبس كل يوم فستاناً جديداً.. و.. و..

- ولكن الجنيهاً الخمسة كثيرة!!

لوح الطبيب بيده، فسقطت طفوة السيجارة على أوراقه. مطاً رأسه ونفخ:

- هي فعلا كثيرة، على درس لا يتجاوز ساعة.

ظهرت أسنانه المفلوجة بيضاء ناصعة، وهو يسحب قهقهته:

- اخصم منها الزمن الضائع في شرب القهوة.. والمرطبات، بل أحيانا بعض السندوتشات.. أنت مدرس وتفهم.

وأدير رأسي إلى البنت، كانت تنظر إلينا في وداعة، وكان قرص النعناع لا يزال في فمها، وأربت على خدها فتبتسم، والبسمة عنقود مترع بحلاوة لا يتذوقها سوى الآباء، كانت تؤرجح ساقها على الكرسي، وتشب برأسها، وتدفس يديها بين فخذها، وترمق من حين لآخر سماعة الطبيب تتأرجح فوق بطنه.. كانت تحس بالأمان.. وتغوص البنت في عيني وقلبي، وتلوح لي عيون الصغار، في الخارج.. وزاحني هم ضاغط، راعش، صامت يتمدد على وجوه الآباء ويزحف إلى الداخل.. كل الداخل.. فقلت منفعلا:

- ولكن الجنيئات الخمسة كثيرة على الكشف.

نهض الطبيب فجأة، سوى هندامه وأرخی سماعته، ظن جبلها ملتويا على يديه، رفق ساعته ومسح بعينه كتبه ورسومه، فوضعت يدي على كتف البنت وكدت أمض، لكنه جلس وبدأ يهز رأسه، ثم مال برأسه إلى الأمام وحدق فيّ. امتدت يده إلى النظارة، خلعها ووضعها أمامه، وظل يحدّق فيّ. آنستني نظرتة بالرغم من حج بدأ يشب داخلي، حتى أنني فكرت أن أتأسف له، فالوقت ثمين، والمرضى من الأطفال ينتظرون.. ولكنني أحسست أنه كمن ينتظر حديثا لم ينته، فبادرته في نبرة عتاب:

- ماذا جد يا دكتور.. اليد هي اليد، والسماعة لم تتغير، وورق الروشنة لم يرتفع سعره، والدواء نشتره نحن.. فماذا جد؟!

كانت ضحكته عالية فضحكت البنت وملت بصدري أرقبه وأنتظر:

- قل هي الخبرة.. نحن في زمن الخبرة. ورمق ساعته خلسة.

وتابع وهو يخفف من ضحكته:

- إننا نبيع الخبرة. وأقبض على ملامحه قبضا.. كررت عبارته في ذهول صامت ثقيل.. وتزاحمني صورة زوجتي من جديد وهي تفقأ الفراغ محذرة بأننا نقف والتيار من حولنا يندفع، ولن يرحمنا أحد، الكل يجري، ونحن جامدون، ولا جدوى للطيبة في زمن السعار..

- الكل يبيع الخبرة!! إننا بهذا يا دكتور نجعل الحياة لا تطاق.. لقد كنت

هنا قريبا.. وكانت الأمور معقولة، وفي متناول القدرة.. فماذا جرى؟!

ويقترب الطبيب من مكتبه، ويمد يده، ويبدأ يقلب في الأوراق أمامه.

- منذ متى على التقريب!

- منذ أشهر قليلة. وتوقفت أصابعه عند حافة الورقة العليا.. من جهة

اليمين وقرأ الاسم:

- بل منذ ستة أشهر كاملة.

- أهو زمن طويل؟!

كانت حركته عصبية، ولم تفتني نبرة الافتعال في صوته:

- هو.. في هذه الأشهر انقلبت الدنيا تماما، كان لا بد أن تتحرك مع الحركة، إنك إن وقفت ضدها، أخذتك الدفعة وأسقطتك.

وتعود صورة زوجتي، فتطفو من جديد.. أخذت هذه المرة ملامح الطبيب.. وتصورت نفسي أمام باب تفتحه ريح رخية لتأخذني عاصفة هوجاء في تيار لا يعقل الحركة ولا يضبط الاتجاه.

- أنت تعلم أن أجر الكشف كان جنيهين.. وكنا قانعين.. ولكن.. وقع الصمت غائرا يحفر العيون.. وانتظرت أن يكمل.. وانتظرت أن أعلق.. وظل كلانا ينتظر الآخر، تتلاقى العيون وتتواجه، والبنيت حائرة بيننا، وكل منا يتوقع أن تنفجر الشفة عن معنى، فإن تحدث طبيبا كل هذا الوقت، ومرضاه يعذبهم الانتظار.. ودقائقه محسوبة، ومدفوع ثمنها مقدما.. فلا بد أن يكون لحركة اللسان قيمة.. وتنبه الطبيب لحركة الباب، ولوجه الممرض يطل ببلادته، بأسرع قائلا:

- لعلك تعلم أن قيمة الكشف عند الطبيب المجاور كانت خمسة جنيهات.  
- نعم.. أعلم ذلك.

- ولكنك لا تعلم أن المرضى كانوا يذهبون للأعلى سعرا. - أهو فقط السبب وراء الزيادة.

- لا بالتأكيد.. إنما هو مظهر له.

ونفض.. ووضع السماعه حول رقبته، وتدلت فتأرجحت فوق بطنه، وأحكم نظارته فوق وجهه، وأعطى البنيت قرصا من النعناع، ومد يده

وضغط على مفتاح جرس بجانبه، وبسط يده، وانفجرت أصابعه.. ومددت يدي، وصافحته، ولكنه أبقى على يدي وقال:

- لا تنس أننا نعيش عصرا لا يسعفك فيه التأمل أو الانتظار.. وخسارة.. خسارة ألا تستفيد بـجـبرتك.. فالتيار يندفع وبـقوة. وانسحب، والبنت في جناحي وديعة كحمامة، ونفسي يشتجر داخلها حديث ثقيل.. ثقيل، وأنا أسائل نفسي في مرارة.. إلى متى تظل صورة زوجتي تراحمني دوما.. وهل يأتي يوم أرى فيها ملامحها مرسومة على كل الوجوه.



## تراجيع الصدى والصمت

وهو ينسرب إلى الداخل في خفة، واجهه سكون متربص يطل من الأركان ويسيل فوق الفراغ كذرات دقيقة لا تبين، أحس به وهو يدهمه في لزوجة، فارتجف عائدا إلى الباب، وإلى الدرج.. البيت بيته، وهو لم يخطيء.

وقف ساكنا أمام اللوحة ذات الإطار الذهبي.. وتنهَّد عميقا، حين لمح البريق في العين وهاله توحش يحتوي العين فلام نفسه عند الاختيار، وتساءل لماذا لم يلحظ ذلك من قبل؟. مشى معه الصمت ثقيلًا وهو يتخطى الردهة الضيقة إلى البهو وهاجس يراوده ملحا أن شيئا ما خرق ناموس حياته، فقد احتجب الضجيج وتلاشى ولم يعد الصوت المدوي رجع صدى يصك الأذن ويرجف القلب. أمال رأسه وأرهف السمع، وتوقع أن يأتيه الصخب من مكان ما.. ولكن الصمت يتماوج سكونا مطبقا ويحيط به، ويعتصره.. أتراها قد أخذته معها في سفرها إلى الأهل؟

كان قد عاد لتوه بعد أن رافق امرأته إلى الحطة. لا يذكر أنها سافرت بمفردها من قبل. كانت تحتد في وجهه إن تعلل بانشغاله. وتستنكر أن تسافر امرأة دون صحبة الزوج. وكان وهو يراها منفعة، يكتم فرحا غامرا يفيض في داخله أما هذه المرة فقد انفردت بالأمر وألحت عليه ونفذته. حاول أن يعترض ولكنها ببريق العين الحاد قتلت محاولته. فترل على رغبتها مضطرا.

أدار عينه في البهو فأحس به يرشح من المسام.. سائلا محمولا فوق ذرات ريح خفية ليتزلق على الجلد والقلب والعصب وينتفض، ويلوح بذراعيه، ويدور في مكانه، ليطرد بحركته القلقة هذا الذي يسيل ساكنا وصامتا.

وقف أمام الشلاجة يستمتع بصوت الحرك الذي يشبه نغما نادرا. لقد كان الصوت الوحيد الذي يشعره بوجوده ما، أخرج زجاجة المياه ووضعها على الطاولة. وارتطم الزجاج بالزجاج. وامتد الصوت وعلا زاعقا، فأسرع فزعا ليضعها في الشلاجة دون أن يشرب، مسحت عينه أكدا من الطعام والشراب، ومرت عليه الخاطر أن تكون امرأته قد أزمعت على الغياب، فهمه الأمر وركبه حزن ثقيل.. كيف تتركه مع صمت ثقيل كهذا، وهو الذي لم يتعود منها إلا الصخب والدوي الزاعق؟ تذكر وهي تتلو عليه قائمة النصائح أنها ستمكث أسبوعا. كانت تملأ المكان كله في وقتها.. كانت تسد عليه كل الواجهات، ولم ير إلا واجهتها فقط، كانت عاداته التي تربي عليها. وأحس بطمأنينة مباحة فليس الأسبوع كثيرا في حساب الأيام.. ووعي صوتها وهي تحدثه في حدث لم يتعوده منها..

- هذا الصنف ليومين. والآخر يؤكل مرة واحدة، أما الثالث فلن تنتهي منه قبل أن أشاركك فيه.. الفاكهة طازجة لم يمر على قطفها يومان.. تستمر أسبوعان وأكثر.. أعرف ولعك بالفاكهة، ولكن لا تسرف فأنت لا تقوى على الشراء.. ستراني بعد أسبوع أعصر لك كأسا من البرتقال.. وإن كنت لا تتمنى ذلك.. أنتم صنف الرجال لا أمان لكم.. ويضحك،

يضحك عاليا فيرتد الصدى صاكا مسمعه، فيرهف أذنه.. ما عليك إلا أن تغسل الأطباق.. إياك أن ترسل إلى الشغالة القديمة.. فقد كبرت ولا تصلح لك في غيبتى.. أحكم الغطاء حولك..

ويبتسم ابتسامه صافية ينداح صفاؤها على وجهه كله فهذه المرأة لا تكف عن حصاره أبدا.. حتى في الصيف، والعرق يتر من الجلد تحرص على لفه بالملاءة كطفل صغير.. الدواء من صنف الدواء.. وتترقق بسمته وهو يصيد طيفها.. تنبه إلى الموقد، ولا تنم قبل إغلاق التلفاز.. ولا.. ولا.. ولا.. وانبههم شعوره انبهاما شديدا.

حين أراد أن يخطو إلى الداخل أوقفه احتمالات الصوت المدوي وسط السكون المطبق فخلع حذائه وظل ممسكا به. فهو لا يقوى على الصمت، أو الصوت.. كيف يواجهه بمفرده؟ أين يضع الحذاء، أیظل يمسك به؟.. عودته امرأته أن يضع الحذاء في صندوقه الخاص.. وصندوق الأحذية بجوار الفراش، والفراش الوثير يقبع خلف باب، والباب يصر صرير ساقیه قديمة. والصرير الآن يقتله. كثيرا ما نبهها إلى علاج مفصلات الأبواب.. ولأنها طوع أمره، فاهتمت بالأمر اهتماما شديدا، أسقطت الزيت على الخشب وظل الحديد كما هو صدئا - وكلما نبهها إلى ذلك ازدادت بقع الزيت في مساحة الخشب، فهي لا تعطي له أبدا أمرا.. وهي امرأة مغرمة بكل صوت عال يحاكي قرع الطبول.. ولأنها عادته، عود سمعه على الرهافة وأجرى بين العين والسمع حركة تبادلية. وظل اللسان - وسط حشد الأصوات المختلطة - لا بد في تجويف الفم. ولا بد أن يتعامل

وأن يتحدث. وأن يصل صوته إليها أولاً قبل الآخرين.. ودرب حنجرتيه على النطق.. وكان نطقه صراخاً.. فليس للهمس مجال في الضجيج. ولكن الصوت الآن يختلف، إنه خيط من حزمة أصواتها. له زعيق يعادل ما تحدته من صخب يومي. وإذا كان يقدر على الكف عن الفعل، فهو عاجز أمام الصمت الغريب المزاحم ما رآه يوماً، أو سمع عنه، وها هو الذي تمناه يوماً، يحاول الهرب منه، فكم تمنى أن يعيش ليلاً ساكناً، وقمراً وادعاً، ووجهها مضيقاً، وبدا لا تمسك بالمنفضة، وشعراً غجريا متمرداً.

وعينين وادعتين لا بريق لهما. فقد هذه البريق وأزعجه.. وها هو الآن حزين، لا السكون أفرحه ولا انطفاء البريق.. وأحس بوحدة قاتلة.. والوحدة ليست غريبة عليه فهو لا يذكر أن حبال الكلام امتدت بينه وبين امرأته إلا قليلاً. هو يستطيع أن يعد مفردات اللغة التي تدور بينهما.. ففي الصخب تعلقو لغة الإشارة.. وكثيراً ما يفتقدان لفظاً مناسباً لحظة نشوة طارئة فيضحى الأمر مضحكاً ومربكاً.. ويصيحان على إشارة جديدة منذ أن ينفذ شعاع الشمس الدامي، عبر خصائص النافذة، فتهب يقظة ويدها على مفتاح الراديو ليعلو صوته. ويزعج الآخرين. ثم تبدأ الجوقة في صخب عال حتى يأخذها التعب أخذاً إلى النوم.. وكثيراً ما تعجب من رقة حديث يسمعه في الخارج.. أو نعومة لفظ ينساب كحرير جدول.. واعتبر ذلك أمراً ملفتاً للنظر، ويستحق الاهتمام فهو أشبه بخرق العادة.. وكثيراً ما كان يسائل نفسه لما رأى عاشقين يقتربان حتى يكادان يذوبان التصاقاً.. كم يحتاج من الصبر وضبط النفس وتدريب الصوت.. ليحتمل موقفاً هامساً كهذا؟!!

كان الذهاب فجأة مطرقة هوت على رأسه. فهو لم يتعود فراغا هائلا كهذا الذي يقبض عليه الآن منذ أن أتى بها إلى بيته. ولو كان البديل عن الصخب سكونا طالما حلم به. أراد أن يشيها عن الحركة الزائدة والصوت الذي يطحن العصب، ويميته، ولكنها كانت تداومه وتصر عليه.. كان يرونها أن ترى نفسها مشغولة دوما، كأنما كانت تخشى أن تتاح لها فرصة سائخة للحديث، أو تقع متلبسة بهمس يشي بالفعل. كان الصخب يملاً وجدانها كله وبفيض.. وكانت الضحكة تجلجل عبر البهو وبين الغرف، وأضحت المنفضة كالعصا التي توذن بهدير الصوت.. حتى إذا جاء آخر الليل ظل صدرها يعلو وصوتها يرتفع وأنفاسها تتلاحق كأنما تريد أن تكمل حركة النهار.. ويظل هو بجانبها سهران يقظا.. يلعن اليوم الذي حرك فيه مشهدها. حنينا إلى البيت، ورغبة مكتومة في أسرة صغيرة وعش دافئ.

وحملته الأيام على جناحها عبر السكون المعطر بالسكينة.. وكلمما مضى يوم داخلته الطمأنينة شيئا فشيئا حتى أحس بها تملأ كيانه كله.. واندھش لركة في صوته تجاوبت مع المجال الذي يتحرك فيه. وحين أصلح الأبواب خيل إليه أنه يعيش في واد سحيق لا يחדش هدوءه مرور سحابة غضبي ولا عواء ذئب أو نباح كلاب مارقة.. هفت نفسه إلى الأغصان والشجر والماء ينساب بين طيات الحفر. والطائر الغريد يصيح في السحر.. وابتسم.. وفرح.. كيف يواتيه النغم، وهو الذي ظن نفسه متيبسا!! أغرته نفسه أن يطير، أن يرفرف، ويخبط بالجناح على شواطئ لم يرها.. فها هي نفسه، تخدعه، وتخف، وتشف، وتكاد تطير به محلقة.. ما باله الآن يترنح منتشيا.. وهو يخطو في الردهة وبين الغرف في خفين من القماش

الإسفننجي!! ونسج الصمت رداءه الساكن الناعم وغفا على وسادته  
منعما.

اطمأن لخزين الطعام والشراب فمكث في البيت ولم يخرج، وظل  
لأيام قابعا في بيته دون أن يذهب إلى عمله.. كيف يقوى على الضجيج  
مرة أخرى وكيف تتلاءم طمأنينة السكينة مع صخب يتقافز مع كل خطوة  
ويدخل في كل تنفس.. كيف يوقع العذاب بنفسه ويستعيد الصخب الذي  
صنعتة امرأته وأغرقتة فيه؟.. جاءه اقتناع كامل بأن ما يجياه الآن يسير وفق  
رغبته كامنة كانت تراوده على خجل شديد.. رغبة أن يكون هو نفسه،  
أن يتحرك في مجال من صنع يده.. يذكر - وهو يتحسر الآن فقط - أنه لم  
يقو على حسابها.. وتصور أن بالزواج سيكتب تاريخه هو، وأنه سينسلخ  
من تبعيته لأبيه.. فالبيت بيته الآن، وهو رب البيت وصاحبه.. وجوده الآن  
لا يقارن بوجوده في بيت الأسرة الكبير، حيث يعيش الكل في تيه لا حدود  
له.. فسلطان الأب لا يعلوه سلطان. ولكن امرأته الخبيثة تداوم على  
طاعته، لا تؤخر له طلبا ولا تراجع له أمرا، هو السيد، كانت تضحك  
وهي تبدى له الخضوع وكان يتمدد نشوة وهو يراها خاضعة. لم يرها يوما  
تحقق ما يهواه.. ولكنها تخضع له، لم يسمع منها غير كلمة «حاضر» ولم ير  
منها عملا يحقق له رغبة، وجاءه الزمان يتلاعب برغباته كلما حلا له..  
وهيأ نفسه، وبدأ يبحث في دماغه عن رغبات كثيرة موءودة، ليخرج بها  
حية على بساط يده، فقد آن لها أن تفك أسرها وتنطلق.. وظل يبحث في  
دماغه عن رغبات يمكن أن يحققها في غياب امرأته،.. ودوام البحث، ولم  
يظفر بشيء، خيل إليه أن رغباته قد تلاشت تماما، أو أنه حققها دون أن

يدري.. وقع برغبة كبيرة كانت تتأبى عليه وهي التمتع بلحظات صمت مسروقة من صحب امرأته.. وها هو غارق فيه، فكف عن التفكير. قاداته قدماه إلى الشرفة في خفة.. وكانت تطل على حقل من البرسيم، وحملت النسائم إلى أنفه رائحة الأرض المختلطة بعطر نوار البرسيم، وعب صمت الكون كله ولم يرتو. وخط أنفسه على أرض وعيدان البرسيم المرشوقة في طينها تتعالى وتقبض على وجدانه.. وتذكر الرجل وأنفه معلق برائحة الأرض.. أن امرأته تغيب أكثر مما حددت، حاول القلق أن يزاخه فنحاه حتى لا يחדش جمال اللحظة الوديدة. وحتى لا يسحب ذكر امرأته ذكرى صخب لا يزال منتظرا خلف الأذن.

في الصباح الباكر، ارتدى حلته الأنيقة، وخلع خفه الإسفنجي. ونزل يواجه الخارج بجبروت صحبه. وتوجه مباشرة إلى موقف القطار.. فتأخر امرأته - وهو لا ينكر ذلك - قد أقلقه وأودع في قلبه هاجسا يخشى منه. ليكن الذهاب مجرد الاطمئنان، وحبذا لو عاد بدونها.. ولكن الواجب يقتضي السؤال.. تماوجت حول الأذن دقائق الطبول، فكاد يرجع لولا أنه لمح القطار فهول. كانت المحطة غاصة والزحام شديدا. هاله التكسد الرهيب، ووشى إليه هاجس قلق.. كيف يواجه هذا الحشد الضخم؟.. كيف يقتحم هذا الجدار البشري ويخترقه؟.. على مدار حياته العاقلة.. لا يذكر أنه شارك في لمة.. أو مشى في مظاهرة، أو استجاب لدعوة أحد، أو نجح في خوض زحام ما.. يارادته.. كان يومه ينقضي بين رئيس يتلقفه صباحا ضاحكا.. وامرأة تسجنه بعد عودته محصورا بين الصخب العابث والصخب الرابع. كيف له وهو الذي يسير بجانب الحائط أن يواجه

حركة الأجسام في مسارها إلى القطار وفتحاته؟.. وكأنما لم يركبه يوماً!! حاول ونجح، وضع قدمه على أول درجة، ها هو يضع قدمه على الدرجة الأولى.. إذا كان مجرد وضع القدم كومه على الرصيف فما باله لو حاول أن يدخل، أو يجلس مثلاً!!.. وظلت عيناه تراقب حركة الأجساد وتداخلها والتصاقها.. وهز رأسه في أى.. كيف تقبل امرأة أن تحشر جسدها كلها بين عيون لا ترحم وأعصاب لا تنام؟.. ولم تفتنه سخرية زميله في العمل كلما تأخرت موظفة.. إنها تعمل من أجل أن تركب القطار!!

وانسحب عائدا وهو يميني نفسه بأن غدا إجازة وأن القطار سيواتيه راكبا!!.. وأيقظته صيحة الديك، فمنذ أن سافرت امرأته كفت ساعة البهو، والمنبه ذو الدقاق النحاسي عن العمل.

أعد له كوبا من الشاي الساخن، وفضل أن يحتسيه بالشرفة وكان باب الشرفة يتباعد عن مقرده في نعاس خدر، كأنما يدعوه إلى القდوم. وأطلق على مرج البرسيم وغبشة الليل لا تزال تمسك بأوراق البرسيم وزهراته البيضاء.. وقبل أن تكتب الشمس شهادتها، وضع قدمه على الدرج متجها إلى الخطة. ولعل في البكور ما ييسر له الأمر، فهو لا يريد أن تهتز صورته عند أهل زوجته.. واجتاحه غضب شديد.. فالزحام قائم، والمكان ممتليء، والحركة سخابة.. أين يذهب الناس في يوم أجازتهم، ومدى علمه أن القوم لا يهتمون بأجازة، وهم لا ينهضون من فراشهم إلا قرب الظهر. فلماذا تعاكسه الأيام على غير عادتها؟! هي تعلم أنه لا بد له أن يركب القطار إلى امرأته فلقد مضى الأسبوع ولم تأت.. لا مفر.. وحين

أبطأ القطار.. كان لجسده النحيف قدرة اختراق هائلة. تعجب لها  
واندهش.. وضع قدمه اليمنى على الدرج، ومسك قضيب الباب الحديدي  
بيد من حديد. وهم أن يرفع قدمه الأخرى ليدخل.. فعجز، وبقي جسمه  
في الخارج مضغوطاً بأجساد المراهقين. كيف تكون صورته أمام أهلها وهو  
يماطل في الذهاب؟.. واشتدت قبضته، حتى بدا له أن أصابعه تكاد تلين  
الحديد وتنغرز فيه.. والقطار يمضي.. وبقية جسده مضغوط، ولا يدرى عنه  
شيئاً. في الخطوة التالية هبت حركة الأجساد في موجة جديدة فتحين  
الفرصة. ونزل. استقر على الطوار لاهثاً، موجوع الظهر مضروب الصدر،  
مخدر الساق.. وحمد لزوجته أنها ليست عاملة. وأنها لا تحشر جسدها إلا  
مرة واحدة.. ومرق على خاطره أمر بدا له غريباً. أليكون ذلك وراء  
الصخب الذي تصنعه امرأته؟..

وعاد إلى بيته مهموماً. فضل أن يقطع طريق العودة سائراً على  
قدميه.

وأخذ الخوف هذه المرة. فلم يأت منها خبر أو رسالة، أو مكالمة  
هاتفية. وكأنما - هي الأخرى - قد تعاونت مع القطار لإحداث رعب  
خفي يتسلل إليه فيحرمه من متعة التنعم بلحظات السكينة التي امتدت معه  
أياماً. أتستكثر عليه هذه اللحظات المسروقة؟، وهو الذي أضاع عمره كله  
بجانها يتلذذ عذاباً من صخبها وضجيجها ورائحتها؟ أتراها الآن تنتظره؟  
أو شغلها شاغل فرمت فيه بثقلها فأنساها إياه، وهل ثمة شاغل يفوق متعة  
اختلاط متعة اختلاط الأصوات عندها؟

لقد ظل هذه السنين الطوال عاجزا عن معرفة كيفية اهتدائها الدقيق إلى أعمق النغمات وأرقها وهي تدوس بقدميها المقاعد، وتمسك بيدها آلة الهاون.. وبالأخرى منفضة من السلك الرنان.. لم تفتحه آهة تصدر وهي تتابع أداء مطرب، أو إرخاء جفن على ترنيمة حب، أو حزن.. ولا يمكن أن تتمحي صورتها وهي تضرب بردفيها الغليظين وتفرقع بإصبعيها السبابة على دقات مطربة شعبية.

وقرر أن يعاود المحاولة للمرة الثالثة، وهو حتى هذه اللحظة لا يستطيع أن يدرك ما حدث وتساءل في دهشة: كيف تعامل كل هذا الزمان مع القطار، ثم يعجز عن ركوبه الآن! أتراه كان منوما طوال هذا الزمان الماضي!!

كان الوقت الذي ذهب فيه إلى الحطة وقتنا ميتا، واستطاع أن يدلف داخل العربة، بل ويجلس مرتاحا، لا يذكر أنه بذل مجهودا يذكر هذه المرة، الفرصة مواتية والمرأة تنتظر، والطريق لا يستغرق ساعتين، جاء مقعده بجوار امرأة تستند على حافة نافذة مفتوحة، كان كوعها مدببا، ومسودا، وعضلات اليد مشدودة، تحرك رأسها تواءما مع نغمة مفلوطة، أثاره أن تمط جسمها في حركة صعود وهبوط أمال رأسه إليها، زاحمته رغبة في رؤيتها، هذه الساعد الأنثوي لا يكون إلا لرجل، لا بد أنما تعمل، وتعمل.. وتصدر قدرا هائلا من الصخب هي الأخرى وحين أمال رأسه كانت قد اعتدلت، وعاد الذراع راقدا على صدرها المكتنز. ثم فتحت حقيبتها، وأخرجت امرأة، وسوت شعرها، وضغطت شفيتها، ومسكت زجاجة عطر صغيرة،

ورشت العطر على الصدر، والعنق، وتحت الإبط، وتحت البطن، واعتدلت.  
وصويت عينيها إلى بعيد.

اكتأبت ملامحه. وبدا الضيق واضحا عليه.. فانسل هاربا ونزل،  
أمسكته أنفاسه المتلاحقة وشدته، ونز منه عرق غزير. ولعن الرائحة  
وصاحبته والقطار وسائه. كيف لامرأة أن تتعطر برائحة كتلك؟!.. يعلم أن  
الرائحة الطيبة ترطب الأنف فالقلب.. فما بال هذه الرائحة تقبض النفس  
وتلوي الصدر!!.. كثيرا ما نبه امرأته إلى نوع العطر.. ولكنهن في هذا  
الزمان ما عدن يفرقن بين عطر القلوب، وعطر العرق الغزير.. امرأته  
كانت مغرمة بالرائحة، بانسكاب العطر، بلون فريد من العطر يدير الرأس  
ويبعث على الغثيان!.. نبهها كثيرا إلى تغييره بل اشترى لها عطرا محببا  
له.. كي تستخدمه.. ولأنها تطيعه، ولا تعصى له أمرا، كانت تفرغه في  
الحلاء ليظل عطرها يجوب الفراغ ويملاً البيت كله. كان يحمله معه دوما  
دون أن يدري، فمن تكرر العطر وكثرته فقد حاسة تمييزه.. زميلاته حين  
كن يشاهدنه صباحا، يضحكن ويملن براءوسهن، ويغمزن بعيونهن.. وكثيرا  
ما نبهه رئيسه إلى تغيير نوع الرائحة فهي لا تليق بمثله، ولا تتلاءم مع جو  
العمل.. ويغمز بعينه إلى النسوة.. ويطل هو حائرا مندهشا من سلوك  
زميلاته، ورئيسه فالرائحة خالية تماما من أية أنوثة بل هي مقززة، يعلم أنها  
مقززة، وإن كن لا تبدين ذلك. تبدلت البسمة إلى امتعاض خفي!! ماذا  
كانت تبتغي امرأته وهي تسكب العطر على ملابسه!.. وهي تتسحب -  
بعد أن نمرها في قسوة - آخر الليل لترش العطر بعد أن تتأكد أنه نائم!!

ومشت الرائحة معه، دخلت معه، وخرجت معه وعلقت بكل شيء،  
ولأنه تعودها افتقد حاسة التمييز.. ولكنه هذه المرة لا يقدر على نسيانها..  
كلما تذكرها شعر بغثيان يقبض على حلقه.

وهب ضجرا، واقتحم غرفة النوم.. كانت زجاجات العطر ساكنة  
كأنما تتداخل.. وفي هدوء ساكن أخذها وأفرغها كلها في حوض المياه.. في  
ذلك المساء بعد أن فرغ من العطر، شعر بأن ثمة ريحا تنساب في البيت  
تحمل نوار البرسيم، ورائحة الحقل - حث خطاه إلى الشرفة - رأى نتفا  
من السحب البيضاء تتجمع. وأحس ببرودة خفيفة تكاد تلسع الجلد..  
جاءه الخريف مزينا بروائح الحقول الناشفة. أوصد الباب. ولبس «روبا»  
ثقيلًا.. كم طالت لياليه في أيام الخريف!! كان يجلس في البهو الواسع على  
أريكته المفضلة، وتحت النافذة مباشرة متنعما، في الهزيع الأخير من الليل،  
بهبات ريح تحمل نسائم ليل يقترب فجره. مستمتعا بلحظة نادرة لا تقطعها  
امراته.. نفس المكان، وذات الأريكة، والليل يرخي من حوله أستار  
الصمت، وهو مبهور بسكون الخريف وبرودته.. الساعة لا تدق.. معطلة،  
والثلاجة بيضاء مصمتة، مخلوع سلكها بالليل وموصول بالنهار تكاد من  
صمتها أن تتركن على جدار كالح.. بهت ألوانه، كأنما كان يسرق انشغاله  
ليتساقط، واتخذت المقاعد ذات الرداء القطيفي الرمادي هيئة جذوع نخل  
متراصة. ولاح الصوان وبداخله تطل المعادن البيضاء عبر زجاج مغبر،  
كمراة أدارت وجهها في عتمة مقبضة.. وانكسار الظلال على الصوان  
طمس واجهته وأغطش لونه.. لم يبق واضحا أمامه سوى شاشة التلفاز،

الأشكال تتبدل ولا صوت.. اقتربت الإضاءة من الظلال، وكأنما الظل  
يخنق الضوء والصوت معا.. وبدت في عينه ملامح الأشياء بقعا من الليل.

ظل جالسا في مكانه لا يتحرك، وهو يشاهد الرجل العجوز على  
الشاشة، يمر أمام الباب. وهو يقبض على عصاه الرمادية، وهو يحكم إغلاق  
صديرته، وهو يرفع رأسه إلى أعلى، وهو يثبت عينيه على نافذة البناية  
العليا.. العيون منطفئة، والجفون مرتحية.. وكانت هي.. تتساند على جدار  
النافذة. وتنظر إليه.. والعيون منطفئة والجفون مرتحية، كان كل منهما  
ينتظر الآخر.. ظل العجوز يمر أمام الباب وينظر إلى أعلى.. والمرأة تتساند  
على جدار النافذة وتنظر إلى أسفل.. وهو على أريكته، تحت النافذة  
مباشرة، يتابع المشهد بانهار شديد. وتولاه العجب.. وشرع يتمتم: لا  
الرجل صعد ولا المرأة نزلت، وأخذه النوم عميقا.. عميقا وهو لا يزال  
يردد.. لا الرجل صعد، ولا المرأة نزلت.



## انكسار الضوء

(١)

كان كل شيء هادئا.. الطرق ممتدة وواسعة، والجزيرة خضراء مترعة الخضرة. ورجل المرور يقف على يمين الإشارة، ويرفع يده اليسرى في الاتجاه المقابل.. كان الإطار بين يديه لا يزال يرتعش.. والنغم الموسيقي ينساب من فتحات الراديو هادئا مؤثرا.. والعين تقوم في البعيد.. والقلب - وأذنه تتلقى النغم - يرتجف وجدا.

أخرج من صندوق العربة زجاجة عطر.. لاصقت العربة الرصيف.. ثم انثال العطر رذاذا.. أغمض عينيه وغام.. كانت النسمة رخية وأصابها تمتد في زحمة الهوس المتفجر من العين. ألقى بالزجاجة ومرت في وداعة فرطت قلبا يحترق، وأسدت على العين سترا شفيفا لا يخفي حمرة القلب، ولا يمنع سخونة الدم. ود لو يسحبه من الذاكرة ويحييه.. لم تفته عين رجل المرور وهي ترمقه في تفحص.. أغلق باب العربة، سحب المفتاح. دسه في جيبيه، نظر إلى العربة، وإلى اللوحة، وإلى زجاجة العطر، وإلى رجل المرور.. ثم رفع رأسه إلى بناية شاهقة.. ومضى متجها إليها.

(٢)

وهو الآن لا يصدق أنه يقف أمام الباب. هذا المكان الذي تراءى له يوما بعيدا ومغرقا في الوهم.. يقف الآن في مواجهته منتظرا لحظة زمنية واحدة تفصل بين خطين دقيقين مبهمين ومتوحدين. لحظة ويتحقق من هذا

الوهج الشفاف الذي يسيطر عليه ويأخذ وقته كله.. ووعيه أيضا.. فمنذ أن رآها وهي تسير ماضية كالسهم، رخية كالنسمة، وضيئة كالنور، فواحة كالوردة، حتى أدرك أن هذا الشيء الذي لا يستطيع أن يضع يده عليه ويلمسه، قد واتاه وأضحى قريبا منه.. والوجه الوضيء اللامع الراشح بجماله يفرش حسن ملامحه ويأكل بنوره ما يقترب منه.. ولكنه يقترب، يظل يقترب.. وها هو الوجه ذو الأنف الدقيق، يقف على جسد فارغ، ممتليء بأنوثة يعجز الثوب عن لها وسترها. ويقترب. ومن يعيش رؤية الجمال ولا يقترب؟!!

في لحظة الاقتراب يتوارى الوجه.. توارى وخلف موجة أثرية تعبق المكان وتضمخه.. والوردة الحمراء لا تزال مغروسة ترف أوراقها رفة النسيم وتضحك رائحتها فيمشي العطر في المكان.. ويذهل.. لم ير في حياته وردة دسمة اللون، عميقة الرائحة، تنبه في اختيال أثري كتلك الوردة.. ويقترب منها، حتى كاد الأنف يلاصق القلب.. قلب الوردة، وفي لحظة انفصال الأنف، لحظة أن امتلأ الأنف وارتوى فابتعد موصولا بخيط دقيق شفيف.. رآه.. رآه للمرة الثانية، رأى الوجه المضيء صغيرا، مصفرا بورق الورد، ومزينا برائحة حمراء تنبعث من شفتين حمراوين حمرة الكريز المقطوف لتوه.. وجاءه الدهول هذه المرة ضاغطا وثقيلا.. ظل صامتا لا يتكلم. جامدا لا يتحرك.. انطبقت ملامحه، وتمشي على الوجه امتعاضا وذهولا، ووقف اللسان في التجويف مرتخيا، وظلت عيناه مرتبطين بالوجه، وجه المرأة التي فتحت له الباب.. كان مبهوتا.. كيف لم يتأكد من الوجه قبل أن يصعد البناية ويدق على الباب?!!

ولكن الجسد الفارع الذي يعجز الثوب عن لم أنوثته.. كان هو..  
هو.. والرائحة التي تصوع منها وهي تسير كالسهم أو في رخاء كالنسمة..  
هي.. هي.. رائحة الوردة الحمراء. لا يمكن أن يخطيء الرائحة.. إنما معه  
تلازمه.. وهي الآن قابعة في العربة.. ولكن الوجه الذي رآه مختلف.. هذا  
الوجه المراوغ الذي يلتبس الجسد الفارع الجميل، والرائحة الجميلة  
ويدخل في النور ويغتسل.. ما باله اللحظة يخطيء؟ أجهاه الخطأ وهو في  
لحظة استحواذ الوجه عليه وتمكنه منه؟ أم أنه لا يجب أن يكون له شبيهه  
فيتعالى؟.. والعين المتسائلة من وراء فتحة الباب تقلق، ولسانه يعجز عن أي  
تبرير.. فتمتد اليد وتصفق الباب في قوة.. ويظل هو جامدا، ثم تحذه قدماه  
إلى أسفل، درجة، درجة، حتى تلقي به إلى حافة الشارع الغاص بالوجوه  
والأيادي والأجسام.

(٣)

تزل الغلالة الشفيفة، ويتلاصق معها، يختلط الجلد بالجلد، كان يأتيها  
تائها وحائرا، لم تدفعه الرغبة أو الشوق، أو استثارة شيء يلبد في ذاكرة  
الحس، كان يقدم على الفعل في بلادة.. ولكنه هذه الليلة يدرك أن شيئا  
مبهما وغامضا لم يتعوده.. يحدث أمامه.. رآها.. امرأته.. تسوي الفراش في  
طقوس رتيبة، المخدات الصغيرة في الأركان، والستارة الحمراء المزينة  
بورود بيضاء تتدلى فوق رأس الفراش، ورائحة عطر نفاذة تنبعث من  
الأركان.. والليل الغاطس في ظلمته، تحرك موجاته «لمبات» ركنية صغيرة،  
تبعث ألوانا مختلطة بين الأحمر والأزرق.. والشعر ينسدل على الأكتاف..  
وما رآه يوما إلا مزموما فوق قمة الرأس، والقرطان الصغيران يلمعان في

احمرار مصفر، ولمعان جلدة الوجه يشي بأن أصابع مدربه جرت عليه.. ولكن.. العين.. مختلفة.. العين تختلف هذه المرة.. أين الانطفاء من الوهج؟ والتحجر من خبطات الجفون حياء؟.. والحسار القميص عن الصدر وكل الظهر.. وما كان يرى إلا ثوبا خشنا يسجن الجسم ويزمه؟!.. ثمة موسيقى لا يعرف من أين تهب.. تنساب في رقة وهشاشة.. تدغدغ الحس وتنقل الروح إلى عالم خفيف.. يقف على حافة جدول تترقق مياهه وهي تتسلل عبر الورود والشجر.. ظل قلقه قائما.. كيف يطمئن.. ولم يكن يسمع إلا دقات الهاون. وخبطات الطبل، وصدى المنفضة يزعق عاليا في ضجيج يومي، حتى إذا ما استكانت قليلا من وقع الدقات، امتدت يدها إلى آلة التسجيل لتدس فيها «شريطا» لمطربة شعبية ذاع صيتها هذه الأيام. وهو يرمقها بركن عينه. يتلوى جسدها مع صراخ المطربة وآهات الناي ونفخات المزمار.. يرمقها ثم يهملها فتمتد يدها مرة ثانية.. فيعلوا الصمت ويعلو فوق كل شيء.. ويتلوى جسدها عنفا وهو سا.. ويضطرب؛ ففي كل فعل معها يضطر. حتى يخرسها لاهثة وحتى لا يسمع فحيح الصراخ.. ولكنها هذه المرة تختلف.. تختلف تماما.. حاول أن يعرف، ولكن الغلالة تترلق ويتلاصق معها.. تمتد يده لتزيح الشعر المسترسل فوق الوجه. ينهض قليلا ليتملى الوجه هذا الوجه الوضيء المشع نورا، يتلأأ ضوءا، ويتبدى اختيالا.. هذا العصي الأبي، الجامح الرامح، أمامه وفوق فراشه، وعلى مقربة من لمسات أصابعه، وملامسة شفثيه.

وتتمشى أصابعه في رهافة مدغدغة، ويستريح الوجه بين كفيه، ويستريح الوجه في وداعة وارتحاء.. ويقبض عليه.. هذا الهارب دوما،

صاعد القلب ساخن الحس، راعش الدم، كان الوله ينساب تيارا دافقا لم يعهده يوما في حياته. هذه الليونة الطرية تتماوج مع لمحات الوجه المعطر ضوءا.. أدرك لحظتها أنه جمع في يده كل أصوات البلبل، وكل روائح الورود، وكل نعومة المخامل، وكل الأضواء المستورة.. في اللون الأبيض.. هذا اللون المخادع الذي يقهر الألوان.. وها هي تنساب رقيقة، كل المخبوء يتبدى، ينصهر الجامد ويشيع رقراقا كموجة فجرية، وهي بجانبه تشهق يتقاطر الدمع من عينيها، وتشهق. هذا الانسياب العاطفي لم تحسه يوما. كان يأتيها باردا، أو عنيفا، فما باله الليلة رهيفا كنسمة الفجر، نافرا كدفق النور، باهرا كشلال من الموسيقى!! تتماوج البسمة.. وتخرج من غفوة النشوة وذوبان الحس.. وهمس:

- أنت الليلة تختلف!!

كان لا يزال قابضا على الوجه بين أصابعه، وكانت عيناه تغيبان في إغفاءة شاردة وحط على ملامحه رضى واطمئنان.. وكانت الفرحة تتخايل عليها وتتمايل، وظلت تمس في هشاشة صوت لا يدرك.. أنت الليلة تختلف..

وهو يسحب نفسه شيئا فشيئا يرفع الرأس، ويفتح العين ويرى الوجه ويتبلد.. كانت امرأته قد أرخت ملامحها.. وراحت في غفوة عميقة، وتبلد.. نثر نفسه في عنف ورجفة، ألقى على امرأته نظرة ممرورة. وارتدى ملبسه، وانطلق إلى الخارج، وصراخ المطربة الشعبية المنبعث من المسجل يطارده. والوجه المراوغ يقتله!!

(٤)

تنساب أمامه المياه رقراقة، وتنحدر في قناة ملتوية حادة الحافة، ثم تتعكر وهي تختلط بماء البركة، وتتناثر خيوطا فضية حين يخبط الأوز بأجنحته.. ود لو يخلع ملابسه ويغوص سابحا إلى القاع، فمنذ أن خلع ملابسه على شاطئ البحر من سنين، وهي ملتصقة بجلده لا تنخلع إلا حين تشرع امرأته في تشغيل الغسالة.. لحظتها يتحامل على نفسه أمام نظرات زوجته، ويشد السروال، وينظر إلى ملابسه الداخلية، ويتحسر على إفراط زوجته في الغسيل، ويرى أنها - أي الملابس - لا تزال صالحة ليومين أو أكثر.. ولكن أن يخلع ملابسه ويتعري، ويخبط بذراعيه الموج، ويغوص كسمكة.. و.. و.. يغوص كسمكة وراء الحمار ذي الألوان المختلفة.. والسمكة البهية تواجهه ولا تخشى. هنا يظهر اللون المخبوء.. لم يعد الأبيض اللون السائد.. ترى الحقيقة باهرة ملونة بالأصفر والأحمر والأزرق.. تتداخل الألوان نسيجا لونها رائع المنظر، ويبقى لكل لون مساحته، حتى وهو يتداخل يظل محافظا على نسبته وإن تبدى شبها لونها. والسمكة تتزلق في مسارات ضوئية وترعشك بالنور واللون، تأخذ منك هذا التيار السيل في جسدك ولا تشعر به. تسحبه ذبذبة راعشة فلا تملك إلا أن تنساق وراءها، وأن تتعري ليتلقاك موج القاع الأكثر برودة والأوضح مجالا لرؤية الضوء.. لأنك كلما تغوص كلما تقف على مواطن مظلمة تتراكم فيها العتمة وتمدد.. وتظل السمكة البهية المختالة بنفسها وجمالها وألوانها تسحبه شيئا فشيئا.

ولكن الأوزة بخطوتها القوية وبانطلاقها المسرعة تشق صدر الماء،  
أضاعت من عينيه تلك السمكة البهية المختالة بنفسها والتي سحبت من  
جسده جذوة ظلت تتحرك ولا تبين.. أمال جذعه والتقط حصاة ورماها  
بالماء، واقترب، أحدثت الحصاة تموجات رقيقة على السطح، أدهشه أن  
يرى القاع خاليا من أي جمال، فانسحب مهموما ومدهوشا، أرعبه هذا  
الصمت الذي يتغلغل في سكون ويتسلل إليه رويدا ويديا، يحس به يرعش  
اللحم متسللا دون أن يقوى على إيقافه، شيء ما يفرز فيه هذا السائل  
الرقراق الشفيف الذي يحيل الجسد هالة من الظلال. ويظل يتجول خفيفا  
ومهموما.. أدركه خوف مبهم فالتصق بساق شجرة، كان اللحاء خشنا  
مدببا، فأضحت ملامسة الجلد له مؤلمة.. باغت نفسه وجرى.. وهو يجري  
أدرك أنه يجري وسط الموج الأخضر فخفف من عدوه، تمتعت عيناه  
بالورود والزهور، وسقطت على مسامعه وشوشات الأوراق وترانيم  
العصافير. وامتدت يده تلامسان الثمار، ومشت أنامله على فتحات المناقير  
تنساب موجا من النغم، وتفتقت بين راحتيه قشرة الرمان، ولاح الحب  
الأحمر مدما كالعقيق، وازداد الفتق حتى وصل إلى القلب.. كان محاطا  
بغلالة بيضاء، تفصل تجويفا عن تجويف، وتمدد الغلالة وتوسع، وأنفاسه  
تتلاحق، يقترب في رعشة الرغبة. ورهبة الخوف والغلالة البيضاء تتسع..  
وأنفاسه تتلاحق، وعيناه يتفجر منهما الينبوع المستور المستكن وهو يرى  
بمجامع عينيه، ملامح الوجه تتشكل على رقائق الغلالة.. ها هو الوجه  
الوضيء يتبدى.. ويترنح، لم يقو على المواجهة، ولا على رؤية المستور  
والمخزون.. ويترنح. ثم يد بيضاء تمتد لتسنده، تحذه تحت جناحها وتضمه،

وتقعد به على حميلة من العشب الأخضر، تفرد ذراعه، وتفرك عينيه،  
وتقرص خده، وتحدث في عينيه، هذا الجسم المخملي - نفسه - يتمدد  
بجانبه. تتمشى يداها برائحة الورد المنساب.. من زجاجة بللورية - على  
الوجه الغافي - يحاول أن يخرج إلى النور فلا يقوى.. من يقدر على مواجهة  
الوجه وهو في لحظة ضعف عافية.. يحاول أن يخرج إلى النور ولكنه بكل ما  
يحتزنه من تيار سيال في مجرى الوجدان.. يتلقف اليد الممدودة ويقبض  
عليها.. يقبض عليها ويتضرع إليها.

- آلان.. لن تمربي مني!!

ويطوح برأسه يمينا وشمالا، ويخلع عينه من كل المرئيات، ومن كل  
الألوان، ويتغنى صادحا:

- أنت اللحظة قمري وضوئي.. لن أفرط فيك ولو أخذت عمري.

ويضحك الوجه الوضيء فيغمر المكان نور باهر متعدد الدرجات..  
لا سيطرة فيه للون.. يضحى الكون كله، سماؤه وأرضه، متشحا بغلالة  
النور.. يرتسم عليها ملامح الوجه بعرض السماء وعمق الأرض.

ويفتتر الشعر عن لفظ مضىء:

- ولكن عمرك يهمني.

وتأخذه سحابة بيضاء فيهمس:

- أيهمك أمري!؟

ويتلاعب الوجه بالنور فيأسره:

- إنه أنا ينساب فيك ولا تدري.

وتتعدد الدهشة فوق الوجه كله:

- وكيف أعثر عليك في؟

وتنداح فوق ماء العين ظلال من الضوء:

- عندما ينير داخلك ويشتعلم.

ويصرخ فرحا:

- هو الآن يشتعلم.

وتبتسم:

- ولذلك رأيتني.

ويتفجر غضبا:

- ولكنني الآن لن أتركك.

ويضحك الوجه، وتتألأ الضحكة فوق الغصون شريانا من النور..  
وتمتد يداه بكل قوته وتمسك.. وتضغط.. هذا الوجه وهذا الجسد الفارع،  
أمامه ولصق جلده وبين أصابعه لن تضيع مني.. ويضغط، ويظل يضغط،  
وتمتد أصابعه تحاصر الكتف، والذراع، والصدر، وتدفن الوجه في الوجه،  
ويضغط في قوة - الآن لن تضيع مني - وتتقلص أصابعه، وتتقلص، على  
حين تندس في باطن اليد زجاجة من العطر، عطر الورود المصفي. تلك  
الرائحة التي تغلغت في مسامه. حين فرك عينيه، وفرد أصابعه لمح

الزجاجة، اجتاحه ذهول، خلع عينيه عن حافة القناة، وأدار بصره في كل اتجاه.. بحث عنه.. فلم يجده، لم يجد للوجه أثرا.. صاح فارتجت الأشجار ودلت الطيور أجنحتها.. أصابه غم غويط فانكفاً على المقعد يبكي.

(٥)

كان يسير في الشارع يخوض الزحام ويطوي المكان.. وكانت أقدامه تتعجل المسير وتدخل إلى الاقتحام.. لم يعد هدفه أن يرى المرئيات كما كانت. حينما استحوذت عليه يوماً بعدما يخرج من عمله.. كان يقضي وقته في الشارع.. كان الشارع هو الملاذ، وهو الملجأ.. يتصفح فيه الوجوه.. به اقتننان بالوجوه.. مغرم بتحديد طبيعة الشخصية عن طريق ملامح الوجه.. بالرغم من أنه وقع في سوء فراسته وهو يختار زوجته، جاء الوجه مدببا مسحوبا عند الذقن، عريضا عند الجبهة، بارزا على حدود الخدين، ظن فيه خيرا، ولمح - كعادة تصفحه للوجوه - ثباتا وانفساحا، وأدرك أن ثمة عالما فسيحا وراء اختياره.. ولكن الزمان عاكسه.. حمل الوجه طابع امرأة عنود حادة المزاج.. ولما وقع في سوء اختياره.. عاود الخوض في الزحام، والركض في الشوارع، وتصفح الوجوه من جديد.. فلعله يقع يوماً على سر سوء اختياره.

ولكنه اللحظة مشغول.. دهمه الوجه الوضيء، ونسجت الرائحة حوله قماشاً من عطر الورود. ولم يعد قادراً على رؤية أي وجه. أو التصفح في أية ملامح.. وكان إذا اضطرت الصدفة أن يرفع رأسه عند مستوى الرؤية، كان يغفي العين، ويرخي الجفن، اتقاء وخوفاً، فما يدريه لحظتها أنه

لن يأتيه - في تلك الغمضة - كاسحا وهادرا. فالوجه الوضيء هذه الأيام يكثر من الظهور والاقترحام.. كيف يتواصل معه وسط هذا الحشد من الناس؟ وكيف يكون موقف الناس لحظة أن يعتريه الدهول وتنضح من عينيه النشوة؟.. لم يستبعد أن يذهبوا به إلى مكان لإيداع المخبولين.

أخذ حذره وهو يمشي، الرأس منكفي على الصدر، والعينان لصيقتان بأسفلت الشارع. والذهن واع تماما.. وهو يكبت رغبة في رفع الرأسه خشية أن يراه مترققا على أحد الوجوه.. ثم ينسل منه مخادعا.. ويبقي له القامة الفارعة، فهو لا يدري لم يحط دائما على القامة الفارعة؟ ولم يختار الجسد المتفتق الذي يعجز الثوب عن لمه؟.. إنه واع تماما لخدعاته المستمرة.. لن يحتك بأحد. سيتجنب كل أنثى، ولو كانت عجفاء القدر. فهو يصر إن ظهر له هذه المرة أن يقبض عليه بكلتا يديه. ثم يحدث ما يحدث.

هو أو الوجه، كلاهما لا يستقيم، واحد فقط.. صمم أن يضع نهاية لهذا الوجه المارق المخادع، إنه نشوته، ولكنها النشوة الناقصة.. وتقف أمامه بكل جسدها، يرى الظل على الأسفلت صغيرا ومحدبا فتيقن أن صاحبة الظل عجفاء، وهو لا يجب هذا الصنف من النساء.. ويمد يديه ليزيح الجسد من أمامه، فهو مشغول، وليس عنده وقت، فهو ذاهب إلى صديقه الرسام.. ومد يده ليدفع الجسد، دون أن يرفع بصره، فما زال يخشى أن يدهمه ولو على جسد عجوز.. ولكن الجسد يفاجئه، كان الجسد مدكوكا ومبروما، سحب بصره من الأسفلت، إلى القدم فالساق فالخصر،

فالبطن والصدر.. ثم.. وقف مذهولا، ومدهوشا.. إنه يتفرق في بسمة  
مترعة بألق الفجر ونور الضحى. لم يمهل. لم ير الملامح المرتخية الوضيئة  
وهي تواجهه كأنما تدعوه. ولم يمهل، لم يحاول أن يقف طويلا أمام نظرة  
العين الراشحة بكل جلال النشوة وموجات الحب. ولن يمهل الوقت مهما  
طال والناس ينظرون، والشفتان المكترتان مر عليهما عابرا، كأنما يخترق  
سحابة من العقيق مسها سيال كهربي فأرجف القلب والحشا.. وما أمهله  
.. انقض عليه.. انقض عليه قابضا.. لا يريد أن يفلت منه.. أيأتيه وسط  
الحشد ويلازمه، وهو الهارب المخادع في الخلوة؟.. طمأن نفسه بأنه ربما  
يود أن تكون ولادته الحقيقية وسط الناس، ليشهد الناس جميعا على حلول  
الاتصال واكتماله..

خاف أن يلاطفه فمازال لا بدا في أعماقه كيف أنه يأتيه مداهما ويفر  
منه كسحابة هاشة.

وتظل يدها قابضتين على الوجه.. ويروح الجسد من هول المفاجأة  
مترنحا، فيسندته فما عادت وسائل الوجه المربكة تنطلي عليه. وتمتد يدها  
لتحتضنا الجسد المبروم كله، يحوطه خوفا وطمعا، يتعرى فيكسوه، فلا  
يصح للساق البيضاء اللامعة المخروطة أن تتعرى لأحد سواه، هو أحق بها،  
أليست ملكا للوجه؟ وأليس الوجه يغزوه في صحوه ونومه.. إذن.. فهي  
ملكه.. ما الضرر أن ينعم بلمسها قليلا.. على ألا يخدع فيفر منه ثانية..  
وتمتد أصابعه لتكتشف الثوب المزين بأوراق الشجر، فيبدو الساق كغصن  
أترعه عرق الحياة.. ويزداد ضغطا وقبضا، لم تخدعه أبدا تلك الأصوات

الزاعقة التي تعلقو من الجسم، فمن يديره.. فقد تكون حيلة من حيله  
الكثيرة هذه المرة لم تفتنه القبضة التي سقطت على رأسه، أوجعته الضربة  
فأدارت رأسه، فوجد الرعوس متلاصقة، والأيدي مرفوعة والعيون يطل  
منها شرر كالنار.

تمعن في الوجه فلم يجده، أعاد النظر إلى جسد المرأة فاحتواه ندم  
مرير، فمض منكسر الخاطر، تعلق وجهه كدمات زرقاء. لم ينس وهو  
ينسحب في ترنح جملة ظلت تطوف حول أذنه. قبل أن تخترقه، وتدميه في  
القلب:

- دعوه.. إنه مخبول.

(٦)

واقنح عليه خلوته، دخل دون أن يؤذن له، فليس بين الأصدقاء  
حواجز، وما يحمله من هموم فوق كل حاجز. صديقه - وهو يراه مقتحما  
- لم يعره اهتماما. وظل يمارس عمله. فقد اعتاد منه في الأيام الأخيرة أمورا  
تبعث على الدهشة. حاول أن يرجعها إلى الخلاف الدائم بينه وبين زوجته،  
ولكنه اقتنع أن ثمة باعثا مغايرا وراء سلوكه الذي يتصف هذه الأيام  
بالخروج على إطار التعقل. ومع ذلك فلم يسعده أن يتركه في ذهوله  
وحيرته، وحركته الدائبة وتنفسه اللاهث وعينييه الحائرتين، فغمس ريشته  
ووضع «البالوت» وأزاح قماشة رقيقة على اللوحة، وتوجه إليه. كان  
ينتفض، يهتز اهتزازا عنيفا أربع الرسام. قاده من يده وأجلسه وصب له  
فنجانا من الشاي، وقدم له لفافة دخان وسأله في بلادة:

- خلاف جديد بينك وبين امرأتك!

ولكنه ظل صامتا، ينظر إليه، والدخان يتموج في سماء المرسوم.. لا  
ينطق:

- وتريدني أن أتزوج!

وضحك الرسام، وهو لا يزال صامتا محدقا، حتى خيل للرسام أن  
صديقه قد أصيب بمس. وكانت لفافة الدخان قد أتت على أنفاسها وشرع  
الوهج ينتقل إلى الفلتر وجلد الأصابع، وهو صامت ومحدق، كان مستغرقا  
تماما فلم يشعر بلسعة النار. التقط الرسام الفلتر وهزه في خفة وفي رقة  
محسوبة. وانتفض، انتفض ونهض واقفا مرعوبا وصاح في خفوت ممطوط  
واصبغه مشرعة في الفراغ.. في تحد مرتخ:

- سأقبض عليك ولو على الورق.

ارتاع الرسام، فهو لم يألف من صديقه تلك الحدة المرعوبة  
والمصحوبة بنظرة غير محددة.

واقترب منه، حاول أن يتلطف معه فبادره في تبسم:

- أتقبض علي أنا؟!

ودون أن يلتفت إليه، أو يحرك رأسه، أو يرخي جفنيه، رد في بطء

شديد:

- بل هو.

- هو.. هو من؟

- الوجه.

وصاح في عنف وحدة وتقلصت ملامح وجهه كله، ووقف جفناه لا ينطبقان:

- الوجه.. الوجه.

هدأ الرسام من روعه وأجلسه، وقدم له ثانية فنجانا من الشاي الساخن وأشعل له لفافة أخرى، أدرك الرسام أن صديقه يقع تحت وطأة أمر ما يثيره ويضغط عليه، وحل صمت مطبق حتى ليخيل إليك أنه تسمع ديبه في جنبات الرسم. وتتابعت موجات الدخان في حبل متعج وهو يلاحق تلاشيها بعينين متسعيتين. حط السكون عليه فازداد ديب الصمت، واسترخت ملامحه وأسند ظهره ومد ساقيه، وبدا كما لو كان في حالته الطبيعية.

تحدث الرسام في نبرة حزينة، وهو يحرص على أن يبعد عن مواطن الإثارة:

- منذ مدة لم تأت إلى الرسم.

رشف من الفنجان رشفة. وسحب من اللفافة نفسا عميقا، ووضع ساقا فوق الأخرى وأمال رأسه قائلا:

- جئتك لتساعدني.

- فيم أساعدك؟

- أن ترسم لي الوجه.

مرة ثانية يتحاشى الرسام الحديث عن الوجه، فهو لا يستطيع أن ينسى الهول الذي لاح على ملامحه وهو يصرخ.. الوجه.. الوجه. أي وجه هذا الذي يثير فيه هذا الهول كله؟

ولاذ بالصمت. انتظر أن يكمل حديثه ولكنه هو الآخر لاذ بالصمت، واستغرقه شرود مباحة. فقام الرسام إلى اللوحة ورفع عنها الغطاء، وبدأ يتأملها، يقترب ويتعد وهو - وقد خرج من شروده - يتابعه ويتأمله.. ثم نهض وتقدم إلى اللوحة:

- جميلة، ولكن اللون الأبيض يطغى على الكل.  
- إني أرمز به.

وقاطعه في حدة:

- لا ترمز به لشيء. كيف يكون المخادع رمزاً؟

- ولكنني أريد أن أحمله معنى..

صاح في غيظ مدمدم:

- هو ظالم، قاس، طاغ، يفرض سطوته على بقية الألوان، يأكلها، يضمها ثم يطويها، ويخفيها، ولكنها ستظل موجودة ومستترة.

- اللون الأبيض.

- الوجه.

ويقترب من الرسام. يلاصقه. يتودد إليه. يلتمس منه ن يرسم له هذا الوجه الوضيء الذي لا تكتمل النشوة إلا به، هو الوصال، والحياة، والهجر، والألم:

- أمعك صورة له.

- وما فائدتك لو كان معي صورة.

- وكيف أرسمه؟

- سأصفه لك.

- ألا يستحسن أن تأتي به نفسه.

ويتحرك في الرسم، هائجا، وصائحا.. مرددا: آتي به.. آتي به!..

ويواجهه في غضب وحدة:

- كيف آتي به وهو يتفرق كالموجة، على وجه القمر، أستطيع أن تأتي

بالموجة الرقاقة لترسمها.

- أذهب إليها.. أنا.

ويردد . يذهب إليها. هذا الرسام مخبول. ويقف أمام اللوحة، يخلعها

في عنف ورقة مكافها، ويقبض بيد مرتعشة على الفرشاة والبالوت. ويتقدم

إلى الرسام والدمع ينعقد في المآقي، ثم ينداح قطرة مكتتزة بالألم.

- ارسمه. أرجوك أن ترسمه، فر بما أستطيع أن أقبض عليه ولو على الورق.

أخذ الرسام الفرشاة منه.

ووقف أمام اللوحة وقال له:

- إذن صفه لي، وأمري إلى الله. تنحى جانبا، أدار ظهره إلى الباب،

واقترب من النافذة، همس في هشاشة لا تسمع:

- مم أبدأ؟

- كما تريد.

حاول أن يبدأ، فاحترار، مما يبدأ؟.. فليبدأ من قمة الرأس. من الشعر. مثلاً. ثم يتزل درجة درجة، حتى الذقن فالرقبة. ولم لا أبدأ بما هو مثير ومهم. بالعين مثلاً؟ أو الشفتين، أو.. حاول أن يدقق في شيء مما كان يراه فلم يستطع. واستعصى عليه الأمر. كاد ينفجر غيظاً وغضباً. بل كاد يتمزق. امتدت يده إلى قميصه، فتقطعه وتبعده عن جلده الذي يلامسه، ويتر منه عرق غزير كشلال. وفي اللحظة التي بدأت الأصابع تبعد ياقة القميص.. لحظة أن بدأ القلب ينغل بالحقد على هذا الذي يتأبى على الذاكرة.. ترقق كموجة فجرية على لوحة أمامه.. وقف مشدوها لا ينطق، جاء الغيث بعدما شعر بالجدب والموات.. ظل واقفاً لا يتحرك، راعش القلب لا يهتز، يصيح داخله ولا ينطق.. وانسحب من داخله صوت ينتدي بالفرحة ويشى باللذة، وحببات العرق تنعقد على جبينه كحببات الثريا.

- ارسم ولا تقاطعني.

واحتار الرسام. تملكته حيرة فنية باهرة لم يمر بها من قبل. كيف يجسد كل هذه المعاني الجميلة في لوحة؟.. كيف تكون العين نافورة ضوء تشع بالألوان السبعة، لا يطغى فيها لون على آخر. كيف تجمع العين كل الألوان؟ بأي لون؟ وبأية فرشاة وبأي وهج فني تتحول أغصان السوسن النائمة إلى أهداب للعيون، تقف على حواف بحيرة تستقبل موجة ضوء فجرية.

ووقف مأخوذاً. حاول أن يوقفه فلم يستطع. كان شيء ما يشده إلى اللوحة يقرأ ما فيها دون أن يدري. أدرك أن صديقه في غيبوبة، غيبوبة اتصال نادرة. بدا له صديقه نفسه موضوعاً ممتازاً للرسم. فكر في أن يغير اللوحة ويرسمه هو. تلك لحظة نادرة لا يوجد بها انفعال على طول ما رسم وشاهد. ولكن الصوت يأتيه خافتاً وراقصاً. خيل إليه أنه يأتي من خلف اللوحة. لم ير في اللوحة جديداً، حتى تجذب صديقه كل هذا الجذب. وعاودته الخيرة. كيف يرسم انشغال المعاني الشعرية في خطوط وألوان.

الشعر الأصفر المنساب على الجبين والجانبين يحمل معنى اقتراب الشمس من خد الأرض البكر الخجول. لا تنس أن الشعر يتموج بموج البحر، مترع بما في جوفه من لآليء وأصداف. تذكر أن في القاع عتمة، لكنها عتمة ما قبل الفجر، تذكر ذلك وأنت تلمس بفرشاتك التقاء الشعر بالجبين.

ويعلو اللهاث، ويطفو الانبهار، وينبهر الرسام بما يرى. تلك حالة لا تحتاج إلى فرشاة، إنما في حاجة إلى من يلتقطها فوراً على فيلم طويل. وتقف الفرشاة بين أصابعه عصية. من أين له بلون يجمع عصير الكريز ونزف الدم ليرسم الشفاه. الشفاه لا بد أن تكون حارة وأنت تراها. حرارة دم مزروف في فرحة، يتألق فيه لون الكريز واستدارته. وليكن الشق الدقيق بين الشفتين رهيماً كحد الصراط ولكنه لا يحجب لآليء البحر. وتأكد تماماً أن البسمة رقيقة كأوراق الورد، ممطرة كأريج الزهر، متموجة كسحابة تحمل الغيث للعطشى، هاشة لا تدرك كنسائم ليل قمرية. وامتدت يد الرسام إلى

علبة الدخان، سحب لفاقة وأشعلها، كانت أنفاسه عميقة عمق حيرته.  
تتابع موجات الدخان، ثم ضغط اللفاقة بعصية، وهو يمسك بالفرشاة في  
لهات فني مبهور.. وهو يحاول أن يجعل من الخد مرفأ للأمان.. تأتي إلى  
الخد، فيعطيك الأمان بعد رحلة طويلة في بحر ناء من العذاب والمكابدة،  
تحمك موجة، وتأخذك أخرى حتى تصل إلى المرفأ الحزن، فتجده منتظرا،  
أحمر حمرة التفاح وأنت تطبع فوقه قبلة الوصول.

ويقف الرسام صامتا ومذهولا. والفرشاة بين أصابعه تتحرك، وكأنها  
موجة أثيرية، تمب عليها فتأخذ معها ما تريد من معان، ومن خطوط  
وألوان.

وقفت الفرشاة عند طابع الحسن.. وطابع الحسن كما تعلم هو لؤلؤة  
الوجه. إذا ما نظرت إليه خيل إليك أنه ينبوع للفضة. بل هو نبع للحياة  
تندفق منه المياه صافية كالبللور. لا تنسى أن تعطى طابع الحسن معنى  
العمق ولون الفضة وصفاء الماء.. فهو في استدارته كون بأكمله.. ثم ثم..  
وأنت.. الفنان.. ثم.. هو نقطة.. ارتكاز.. الذقن.. في انسحابها إلى..  
العنق.. ثم.. و.. تذكر.. و.. ثم.

ويسقط مغشيا عليه. ويسقط معه الرسام متعبا ولاهتا، ومبهورا.

(٧)

حين جاءه رجل الشرطة وقع في حيرة شديدة، فهو متيقن من أنه لم  
يفعل شيئا يحاسب عليه القانون ويقتضي الأمر بالاستدعاء، ليس له اهتمام  
بالسياسة، ولا يتدخل في الشؤون الخاصة، ولم يتسلق يوما درجات هرم

حتى يخشى من يقبع على القمة أن يزاحمه، وهو متأكد تماما أنه لم يقم بفعل فاضح من نفسه أو من غيره.. فلم الاستدعاء؟.. أتكون المرأة قد أسرعت وقدمت بلاغا ضده.. ولكنه يذكر تماما أنهم اكتفوا بضربه.. والضرب في المجنون حرام.. أهي مشاجرة جديدة من امرأته مع جارقتها التي تغار منها.. كلما تضحك المرأة لي أو مني أو تبتسم.. لم ينس كيف سحبت امرأته جارقتها من شعرها ورمت بها على درجات السلم.. ولولا لطف العشرة وتواصل الود، لما قبل زوجها أن يكتفي بأن نعالجها على حسابنا الخاص.. ولكن امرأتي هذه الأيام تغالي في الرقة، وتمتاع من نبع الحنان الطارئ ما يجعلها مشغولة بتحديد الطقوس الليلية منذ أن ظهر الوجه.. وتخدرت بلحظات الدفق الرعاش.

- فيم الاستدعاء؟

أخرج المحقق من درج المكتب صورة صغيرة وأراها له. هب واقفا ومذهولا، مد يديه كليهما وفرد أصابعها كلها، وأمال جذعه، ووقف لسانه ولم ينطق، وظل معلقا بين شفتين مفلوجتين:

- أتعرفها؟

كيف لا يعرفه!.. ولكنه الآن جامد جمود قطعة حجر! أين الرقعة والوضاءة والنبالة؟ أين العطر الذي يمشي في المكان ويعطر حتى الفراغ نفسه! أين؟.. أين؟.. ولكن المحقق لم يمهل:

- أتعرفها؟

- أعرفه.. نعم أعرفه.

- ولكنني أسأل عنها.
- وهل لي حديث غيره؟
- بدا للمحقق أن الأمر يدور في مدارين مختلفين فاقترب منه وهمس:
- ماذا نعرف عنها؟
- عمن تتحدث؟
- عن المرأة التي خطفتها.
- إذن فأنا متهم بالخطف.
- إنما اختفت فعلا.
- يزداد اقترابه منه، وهو يزداد انكفاءً ودهشة:
- و.. وكنت آخر من رآها.
- رأى من!
- ويصيح المحقق في حدة:
- لا تناور فقد رآك رجل الشرطة وأنت تنطلق من سيارتك إلى البناية  
المواجهة.
- أهو يسكن هناك؟
- قلت إن المخطوفة امرأة.
- ومن أدراكم أنني كنت هناك فعلا؟

- ويسحق الحقق سيجارته، ويحتسي الرشفة الأخيرة من فجان القهوة:
- إنها تحمل نفس ملامح اللوحة التي تضعها في السيارة.
  - نفس الملامح!
  - نفس الملامح!
  - ويسكن في البناية المواجهة للميدان.
  - وتسكن في البناية المواجهة للميدان.
  - ويهب فجأة صائحا في هوس:
  - ولكنني تركتها.. تركتها لأنني لم أراه.. نعم لم أراه.. فهو وجه.. وضيء..  
وحلو.. ولكنه مخادع.
  - ويتحرك أمام الحقق في شرود واضح ويتابع:
  - تتصور أنك قريب منه، حتى إذا هبب إليك أنك قادر على مسكه، فلت  
منك، وترك لك جسما مغايراً تماما.
  - ويشير إلى الحقق في جد واضح:
  - إنه سرعان ما يترك الجسم فجأة.
  - أكنت تحبها؟
  - كيف لا أحب من يعطيني لحظة الحب والاتصال.
  - أنت الآن تعترف أنك تحبها.
  - ويحتد الحقق، ولكنه يتراخي شيئاً فشيئاً أمام هذا الدهول الراشح من  
العينين:

- أتصفه لي!

- أصفه لك!!..

إنه الضوء المنساب من موجة قمرية ليزيح ظلالا تتراكم فوق النفس.. هو النسمة الرطبة في ليلة صيف حارة.. هو عينك.. حين تفقد عينك.. هو القدرة على الاختراق لترى ما تحت القشرة، وما داخل اللحاء.. أصفه لك!!.. كيف أصف البسمة تكتنر في الشفتين ثم تتماوج.. في تجاذب حتى تتلاحق موجاتها إلى مسام جلد الوجه الوضيء.. مسامه المخملية.. هو..

ويقف فجأة، جاءه النداء المرئي، فوقف فجأة.

ظلت ذراعه معلقة في الهواء، وفمه نصف مفتوح، وأصابع يده الأخرى في حركة مطوية، وعيناه مصوبتان على زجاج المكتب.  
أدار المحقق رأسه بينه وبين الزجاج.. داخله ذعر وقتي بأن ما يراه خارق للعادة، وصادق في نفس اللحظة.

كان الوجه يترقق خلف الزجاج.. جاءه اللحظة مداهما.. كعادته يأتيه في لحظة الفقد والشعور بالضالة.. يأتيه يصب النور في العين فتقوى، ويرش العطر على الروح فتنتشي.

كان الوجه يضحك، فضحك. غرق في الضحك وظل يضحك.. حتى أخرسه الوجه فأمال جذعه إليه وهمس:

- إهم يبحثون عنها.. ما علمت أن لك جسما.. وإن دخلت كل الأجساد.

ويضحك.. يضحك في نبرة حزن تسحب الدمع من العين:

- كيف أخطف من لا أقوى على مسكه.. كيف تقبض على الحب، أو الفرح، أو النشوة أو الغيوبة.

ويرفع يديه في ضراعة، والحقق مذهول.. مذهول لدرجة الذعر الحقيقي:

- كيف تفعل بي كل ذلك.. لقد أوصلتني إلى الشرطة فماذا يبقى بعد؟..

ويضحك.. يضحك الوجه زاعقا، يضحك طفلا، وبيتسم قمرا، ويضيء فجرا. وينتفض الحقق، الضحك يملأ الغرفة، يملأ الفراغ، وينسحب الوجه شيئا فشيئا.. ينسحب كما تنسحب حواف الدوائر لموجة عاتية ولكنه ينكفيء، ينكفيء على الزجاج في نشيج حاد، وهو يصيح:

- لا تتركني هذه المرة.. لا تتركني..

(٨)

كتب الحقق في محضر التحقيق.

بالرغم من أن الحالة تقع تحت طائلة القانون، إلا أن المشرع فاته أن يستحدث وسيلة ما للوصول إلى كيفية القبض على دليل الاتهام وهو يسري مع الدم في وجدان الحالة.. ولذلك أمرنا بإقفال المحضر، وإنهاء التحقيق حتى يتسنى لنا الكشف يوما ما عن دليل الإدانة الوحيد، وهو يتستر في وجدان الحالة.

(٩)

أخرج زجاجة العطر وضغط عليها، فتناثرت رشات العطر فواحة  
برائحة الورد.. وغمرته موجة فرح فجزية.. فأدرك بداية حلول الاتصال  
.. فمضى منطلقا إليه.. ولم ينس في لحظة انطلاقة أن يعلق على صدره  
اللوحة.. فمن يدري ربما ينخدع الوجه ويتلبس جسمه.

## الحلم يأتي غدا

(١)

كان قد مضى عليه وقت طويل وهو يحمل نفسه على الصبر، وبمنيتها  
بيوم جديد تتغير فيه الأحوال وتستقيم، ولكنه - لحظة أن عاد من عمله  
الشاق وجسمه ينقذف إلى بيت الإيواء في أطراف المدينة - فوجئ بمشهد  
غاية في الإيلام.. الزوجة تنحني على الابن في توجع، والولد الصغير ممدد  
على الأرض لا حراك فيه.. هزه التوجع، وأدهشته حركة السكان التي لا  
تهدأ، فانقبض صدره وارتجف القلب. وصله صوت متعجل:

- أحمد الله.

بنصف وعي شاهد المرأة تقتحم الجمع، وتنحني على الولد، وتعريه  
تماما، ثم تصب عليه الخل، وتدعك الجسد، كان الجسد متخشبا وهي تميله  
على جنبه، وعلى بطنه، وهي تضغط على صدره، وتشد ذراعه وأصابعه.  
حتى رمش الولد بعينه. زغردت واحدة في الطرف فرحا بدبيب الحياة  
العائد.. ولقت المرأة الولد بإحكام، ونظرت إلى الأم. طلبت كوبا من  
الليمون الساخن، ولكن الأم ظلت ساكنة تنهمر الدموع من عينيها  
مصحوبة بشهقات متواصلة.. رحمت واحدة من الجمع، وأتت بكوب من  
الليمون.

احتضنت المرأة الولد ووضعت في حجرها، أسندت رأسه وقربت  
حافة الكوب من شفتيه الناشفتين.. وانزلق الليمون قطرة قطرة. وبدأ

الدفء يسري في الجسد. أبقته في حضنها حتى اطمأنت عليه، وابتسمت حين راحت الأنفاس تتردد في هدوء وانتظام.

وضعته على الحصير، ومهدت له فراشا، وتلت المعوذتين ثم نهضت وأحضرت ورقة وبدأت تقص وقطع حتى شكلت من الورقة شكلا لعروس.. وحين مسكت بالإبرة تخرق جسد العروس، كان الصمت حافلا بالدهشة، والعيون تتابع غرز الإبرة في القلب، والعين والفخذ والبطن والأطراف.. وطافت عيناها وهي تبسم ترقيه، مستعيذة بالله من الشيطان الرجيم ومن عيون الواقفين، وكل من رأى الولد ولم يصل على النبي.

كان الرجل لا يدا في ركن الحجر، يثيره هذا الاهتمام الكبير بولده. وتساءل في بلاده.. ماذا كان يمكن أن يفعل لو كان من الأغنياء!! أكان يمكن أن يشاهد هذه اللمة التي تأخذه بعطفها.. وزهت شفتاه بابتسامة طارئة.. فبعد لحظة واحدة.. ستنشب خناقة على دورة المياه، أو على حنفية الماء الرئيسية، ويتحول العطف إلى عنف مسلح بالنانب والظفر.. وراحت الابتسامة المدهوشة تقبض على ملامحه حتى صكه صوت المرأة تطلب منه عود كبريت، تلجلج حتى كاد يقع. أخرج علبة الكبريت وأشعل العود.. وطالت النار جسد العروس.. فتمزق وتقطع وتفحم ولفظ النفس الأخير.. فأخذته المرأة وسحقته، ثم تناولت الرماد بين أصابعها ورسمت على جبهة الولد خطين متقاطعين من السواد.. وذرت الباقي بنفخة قوية مفاجئة.. وطمأنت الوالدين وانسحبت.. وهرولت النسوة وراءها، وفرغت الغرفة.. وبقيت الأنفاس كالصدى يملأ جو الغرفة ويقبض عليه.

(٢)

كانت أنفاس الولد تتابع في انتظام، فارتاح صدر الرجل، واستبشر خيرا. وقبع في ركن الغرفة وأشعل سيجارة. وظلت الأم بجانب ولدها وعينها على وجهه المبتل بالعرق، ونظراتها.. لا تكف عن متابعة الصدر في حركته الهادئة.. وتنبهت إلى زوجها فنهضت في خفة، ومرقت إلى باب الغرفة وأسدت الستارة.. فبيت الإيواء لا باب فيه ولا حاجز.. الكل يرى الكل، والكل يجرح الكل، والكل يصمت على فعل الكل.

حين جلست بجانبه، طلب منها أن تصنع له كوبا من الشاي، وشغله هاجسه اليومي الذي دام عشر سنوات.. ظل خلالها يتمنى أن يعثر على مكان يقيه من عيون الآخرين.. ولما طال به التمني استسلم لواقعه، وأصابه هم غويط لاحقه طويلا.. واحتسى الشاي بنشوة أثارت زوجته.. فابتسمت عيناه، واحتد وجه الزوجة.. وأزاحت مندِيلها فلاح الشعر ملموما، ثم سرعان ما أهمل كسبائط الصنصاف، فتعجب من جماله وسيولته بالرغم من ندرة المياه وشحنها.

باحث عيناه بالرغبة فأسرعت هامسة:

- لا تزال العيون مفتوحة.

تنهد في ألم ثم قال في صوت ممرور:

- متى يشعر المرء بالأمان في بيته؟

سحق السيجارة بأرض الغرفة وحدث في الفراغ:

- كل يوم نصبر أنفسنا، حتى مل منا الصبر.

- وهل هناك غيره؟

- نعم.. الموت.

خرجت الكلمة من فمه باردة مدممة، فأسرعت تطيَّب خاطره:

- غدا سيكون أفضل من اليوم.

ضحك في عفوية وقال:

- لم لا.. قد يكون الغد أفضل..

مد كفيه وأحاط وجه امرأته فتداخلت ضحكتها مع ضحكه وأشرق

وجهها بالجمال:

- غدا ستفتح الدنيا كنوزها لنا.

ابتسمت وظلت ترنو إليه وقلبها ينبض بحب حقيقي:

- لا تنسني وأنت تغرف من الكثر.

- كيف أنسى عمري؟

وقهدجت أنفاسها وأوشكت على البكاء:

- سأشتري لك ملابس لم تلبسها امرأة.

ضحكت زاعقة فجفل الولد في نومته:

- وسأشتري لك الكردان والخلخال والغوايش.. وحلقان كهيئة القلوب.

ارتعشت، ومشت أصابعها على الصدر والمعصم والقدم:

- لا تحلق بي بعيدا.

صاح خافتا:

- ذكرتني.. سأبتاع لك الجناحين.. تطيرين بهما.

فغرت فاها، فلاحت الدهشة مغموسة بفرح صادق:

- وهل أقوى على الطيران؟

- الخوف كاملا من أجل خاطرك.

- ولكنك نسيت شيئا مهما.

أدرك المغزى، فصمت، ثم بهرها فجأة بحديث لم تتوقعه:

- هذا أمره سهل.. فغدا سيقوم الرجل ذو القلب الكبير بتوزيع الشقق

على المحتاجين. نسيت نفسها، وخطت على صدرها وقالت:

- إنه الكثر الحقيقي.

تابع في جد صارم:

- إنهم يبنون في كل عام مائة ألف شقة، ونحن هنا من عشر سنوات..

الناتج مليون شقة.

- أصحيح ما تقول!

- أعهدت علي الكذب يوما.

- ما عهدتك إلا صادقا.

واتخذ الرجل هيئة الجد، فقسست ملامحه:

- لا تخبري أحدا بذلك.

همست في دلال:

- علينا أن نستقبل الغد بما يليق به.

- غدا تفتح الدنيا كثرة الضنين وتحصلين على شقة.

وارتج سكون الغرفة تحت وهج الآمال وذوب الضحكات الخالصة..  
وسبحا معا في مياه معتقة بأمل يترسب في العمق. كانا مسلوبي الإرادة وهما  
يتخطيان حدود الممكن إلى جزر بعيدة، تترصدها لجة عاتية.. وأسلما  
نفسيهما للتيار، مسحورين بهذا البريق المتأجج الذي ينبثق من شيطان  
الجزيرة، البريق الذي يحطف العين، ويأسرها، ويبقيها على اتساعها ويتزق  
إلى القلب فيعرشه وينفضه، ويمسك الدم فيه.. وأطلق القلب دمائه ومشط  
الخيال ضفائره، ففقدنا المناعة تماما.. وانطلقا ينهلان من الجهول الآسر  
المعطر برائحة جديدة نافذة، مما يوهج الأمل الذي طاف عليهما بغتة،  
فحطما - في لحظة انعتاق نادرة - قوقعة الأيام الرتيبة، وفتحا محارة الحلم،  
ودلفا إليها باحثين عن وهم جميل، ولؤلؤ ثمين.

(٣)

في الصباح الباكر ويده تمتد إلى الستارة تزيجها في طريقه إلى عمله..  
فوجئ بالسكان يقفون وفي أيديهم الأطفال، اندهش للحظة، وظن أن أمرا  
ما قد حدث، فلا يخلو يوم من حدث. لمح المرأة الطيبة التي عاجلت ولده

بالأمس، فاتجه إليها مندهشا. وخائفا. قبضت المرأة على يده. هم أن يتحدث فضغطت يده بشدة وابتسمت. نظر إلى الجمع فرآهم جميعا يتسمون. أمضه قلق مباغت فترع يده بقوة وصاح في حدة:

- ماذا جرى!

ظل الجمع ينظر إلى المرأة ويتسمون، وراحت المرأة تنظر إلى الرجل وتبتسم:

- أحدث شيء!

تغضن وجه المرأة، وتغيرت نظرتها، فخشي على نفسه من تعاويذها:

- يا خالة.. كأنكم تضحكون مني!

ربت على صدره في تودد:

- نحن لا نضحك منك، وإنما نفرح معك.

- من يعيش عيشنا لا يفرح.

غضبت المرأة فزامت الوجوه، طوحت بيدها وفردت أصابعها الخمسة في وجهه:

- عشنا معا عشر سنوات على الحلو والمر.. أتحب أن تستأثر لنفسك بالحلو وتتركنا للمر.

أطل ولده الصغير من وراء الستارة فجرت إليه وحضنته وحملته في حنان:

- إن لي فيه أكثر مما لك .

- أنت الخير والبركة .

قالت المرأة في حسم لا تراجع فيه وهي تحدق في قوة:

- خذنا معك ولا تحل بنا .

- أتقوين على عمل البناء

- رفعت صوتها في ميوعة ونحت الولد جانبا وقالت:

- بناء!! إننا نعرف أين نذهب .

- إنني سمعت بأذني أنهم سيوزعون مليون شقة هذا اليوم .

صاحت النسوة وأيديهن تقبض على أكف الصغار:

- خذنا معك من أجل الأطفال .

أدرك الرجل الموقف، فلقد سمعت المرأة حديث الحلم بينه وبين زوجته.. أراد أن يفهمها الأمر فأصرت على أن تمضي معه حيث الرجل الكبير الذي سيوزع الشقق على الغلابة.. وتناهى إلى سمعه الرجاء والتوسل.. وبدا للحظة خاطفة أنه مهم، بل قد لا يقل أهمية عن الرجل الكبير.. وأنه قد آن الأوان ليقطف ثمرة الصبر، ويسكن في غرفة تحمي أسراره وتصون مشاعره.. وطال رأسه حتى شاهد الأعناق المصلوبة.. ونادى على زوجته:.

- احلمي الطفل واتبعيني .

وأفسح الجميع له الطريق.. ونزل الدرج درجة درجة والأقدام وراءه تدق الدرجات في تعجل وثقل.. ومضى الجمع يقطع الطريق إلى قلب المدينة صوب الجانب الشرقي.. وكان الجمع منظما، وأصر الجمع على أن يمشوا زحفا على الأقدام حتى يشعروا بحلاوة الثمرة وهم يقطفونها بعد عناء. كانت شمس الصباح تطل عليهم في رجفة مصفرة.. وقرروا أن يتركوا بطن الشارع للسيارات، ويكتفوا - كعادتهم بالحافة - ساروا على الرصيف في تتابع.. ولم يخل الأمر من دهشة، فاقترب البعض منهم.. كانت الملامح مشدودة. والأطفال يبكون والنسوة يلوحن بالطرح السوداء، والرجال كالرعاة.

وظلت المرأة تتبع الرجل مباشرة على حين مضى كالسهم رافعا رأسه، ممسكا بذيل جلبابه، يخترق المكان يمينا وشمالا، والمرأة تدفعه والجميع يندفعون. شاهد الطريق بعضا من الناس يهللون ويقتربون ويسألون.. صاحت فيهم المرأة أن ينضموا، فاليوم تفتتح أبواب السماء ويتحقق الأمل، ويوزع الرجل الكبير المليون شقة.. وهرع الناس وتداخلوا وامتد الجمع وطال.. وأبطأت السيارات ثم توقفت وزاحم السائقون الجميع، وتدافعت الأقدام وثار الغبار وطمس وجه السماء بسحابة معتمة تحترقها بجيومات تشع بضوء الأمل، وانعقدت القلوب بما متمنية أن تھطل خيرا يكفي الناس ويزيد.

وصل الطابور الطويل إلى مشارف النيل. لم يبق إلا أن يعبروا الجسر الذي يربط بين البر الغربي والبر الشرقي حيث قلب المدينة.. ويا لفرحة

الرجل الكبير وهو يرى الجموع تمد اليد ليعطيها مفتاح السعادة، إنه يومه الذي يحقق فيه وعده.

وقف الرجل على صدر الطابور فوقفوا جميعا، وتسمّر في مكانه مذهولا.. حاول البعض أن يصل إليه، فمنعتهم المرأة قائلة: "إنه الرجل، ولا رجل غيره.. هو الذي باح بالسر وهو الأمين عليه".. كان الرجل مذهولا، وعيناه مصوبتان إلى الجسر الذي بدا هوة سحيقة لم تبق منه إلا قوائم كالشواهد. وصرخ الرجل في غضب: "أين الجسر؟" .. أسرع وصعد على نتوء حجري، وواجه الجمع:

- لقد انهار الجسر.

صاح أحد الرجال:

- إنها مكيدة مدبرة.

شقت المرأة ثوبها حتى بان صدرها كاملا.. ثم قالت في حزم:

- هيا إلى الجسر الآخر.

وأخذت الجموع طريق النهر الطويل في اتجاه الشمال، وتداخلت الأشجار من حركة الجمع الزاحف، ولاحت مياه النهر لابدة ساكنة كأنما أصابها زعر، وأخذ الرجل يحدث نفسه بهاجس خفي:

- أياكون الأعداء قد دبروا لنا مكيدة.

سمعتة المرأة فقالت:

- وهل للغلبة أعداء! مد يده ولملم مزق الثوب عند الصدر وقال لها:

- أحجبي صدرك عن العيون، فلا يزال فينا حياء.

ضحكت فضاع الصوت الضاحك وسط ضجة الغضب:

- ضاع الحياء في بيوت الإيواء.

ولكنها ظلت تردد في حشرة بللته ملوحة العرق.

- هل للغلابة أعداء!؟

وضربت صدرها فجأة وقالت:

- لقد فعلوها إذن.

ولكزت صدر الرجل فكاد ينطرح، وأشار إلى الجمع أن يمضي.

سدت الهرولة مسامع الناس، وسدت الأقدام منافذ الطرق، ووصلوا

إلى الجسر الآخر.

كان الجسر الطويل، العريض الفخم طلالاً من أسياخ الحديد،

وعواميد الأسمنت منكفئة يلطمها الموج من كل اتجاه. وغلت الدماء في

العروق المرهقة.. وقفز الرجل على سور عال ونظر إلى الجمع.. كان

الطابور طويلاً طويلاً.. وعيون الأطفال مذبوحة، ووجوه النسوة مدممة..

وبريق لا يقدر العناء على طمسه يطل من عيون الرجال المجهدة.

صرخ في الجمع:

- إن الأعداء يترصدوننا.

وهلل الجمع وصاحوا في صوت واحد كالرعد:

- الموت للأعداء.

مد الرجل عنقه وزعق بقدر ما تواتيه حجارته:

- لقاءنا عند الجسر الأخير بجانب فندق النجوم الخمس.

وبقفزة واحدة كان بجوار المرأة.

كان الشارع ضيقا محصورا بين ضفة النهر الغربية والبنائيات العالية على اليسار، لم يتسع الرصيف الضيق لحركة الجمع فزلوا إلى بطن الشارع وكانت الجموع تحتشد وتتواصل وتتدافع.. بالرغم من مكابدة الزحام.. ومشقة الطريق وطوله.. فلقد ظل الجميع صامدين تحركهم الرغبة في مواجهة هؤلاء الأعداء الذين ينسفون الطريق إلى قلب الرجل الكبير.

ثم تسمر القوم فجأة حين رأوا الجسر الضيق الصغير مهدما.. وحديده القديم يغوص في النهر، تبدو أطرافه المدببة كأشرعة غرقى.

وقف الرجل في نبرة واطئة مجللة بالحزن:

- ليس أمامنا إلا أن نجتاز النهر.

حط صمت ثقيل له وخز الإبر وحد السكين.

- ولكن النهر عميق.

- ليس أعمق من مأساتنا.

صكت المرأة وجهها وقالت في عنف وحشي:

- أتظنون أنفسكم أحياء.

أثارت المرأة كوامن النخوة فيه؛ فراح لسانه يردد في صخب هادر:  
- لتكن أجسادنا الجسر الذي نعبر عليه.. وليمسك الرجل يد امرأته،  
ولتضع الأم ولدها على كتفها، ورضيعها على صدرها.. والفتى يقبض على  
وجه فتاته.. إننا ذاهبون إلى عرس الأمل.. هلموا.. أقدموا.. وأسرعوا.  
وخطا الرجل خطواته الأولى.. وغاصت القدم في النهر.. والمرأة  
بجانبه تدفعه.. وظل يغوص، ويداه مرفوعتان حتى اختفت أطراف الأصابع،  
وبلع النهر الأجساد، وأد الصرخات، وقتل الرضع.. واستبقى الجميع في  
قاعه البارد المظلم.



## قطع اللسان

يا حاج علي..

أنا أتيت إليك في مسألة..

لا تطلب مني أن أجلس.. فأنا أعلم أن جلستك متعة.. وفيها لذة كبيرة.. ولكن الأمر الذي يشغلي حد خطير.

لا أستطيع أن أنتظر إلى أن تفرغ لي.

مشغول!

أنا أعلم أنك يا حاج مشغول، وأن جلساءك كثيرون وأنهم والحمد لله من أعيان البلد، ولكنهم يمكن أن ينتظروا.

كيف يا حاج!..

أقول كيف! الأعيان أعيان يا حاج، ووقتهم ملكهم أما أنا وأمثالي فوقتنا ليس لنا.. إنما نحن نساق بالسياط.. ليست سياطا من الكراييج.. لا تندهش يا حاج.. وإنما هي أمر.. إنما سياط الحاجة.

- أنا يا حاج أجلس معكم!!

ليس لمثلي أن يجلس مع الأعيان أو يشرب القرفة بالقرنفل أو أن يستمع لفكاهة من فكاهات المجلس والتي كما يقال يظل الرجل يضحك لها حتى تخرج أحشاؤه.

- لا يا حاج.

الهزل في غير مجلسك، وهل يطيب المقام بغير ضحكة هنا أو هناك..  
الضحك يا حاج مسقى القلوب، والقلوب تحيا بالذكر ومن دواعي الذكر  
البسمة والضحكة. نحن في زمان يا حاج نحتاج فيه إلى نهر من الضحك  
يغسل أحزان النفوس وأنا بالذات يا حاج أحتاج إلى أن أجلس معك  
وأتشرف بمجلسك وأحوز على بركتك ولكن الحاجة شديدة والوقت  
يدفعني، ولا أملك أن أدفعه.

كيف يا حاج وأنت الرجل المبارك الذي يحل لنا المعقد من الأمور..  
فقط اتركني أقول ما يضغط على الصدر.

لن أطيل..! من قال إنني أطيل. إنني حتى هذه اللحظة لم أدخل في  
الموضوع.. سأدخل يا حاج! فقط أسوق عليك النبي الذي وضعت يدك  
على شباكه أن تمهلني قليلا ولا تسقني سوقا إلى الكلام فأسرع.. فيضيع ما  
أريد أن أقوله لك.

- تقول الأمر وما فيه.

هيه يا حاج علي. إن الأمر والله محرج.. وأنا لا أستطيع أن أبسط  
الموضوع في بساطة، إنه والله يمس القلب مباشرة ويمس أشخاصا هم  
بالنسبة لي كالجدار الذي يستند عليه السقف فلا يميل أو يسقط.. ومثلك  
يا حاج كالنهر يلقف كل شيء ويستر كل شيء، وعندك تحط أسرارنا  
وهي تعلم أنها ماضية إلى سرداب لا يفتح. من أجل هذا يأتيك الناس يا  
حاج.

ابتسم يا حاج. فوالله لا تتحقق البركة إلا حين تبتسم. أنت رجل من أولياء الله الصالحين.

حججت البيت وزرت نبيه.

- ومشهورا!.

ومن قال إنك لست مشهورا.. إن المطايا تقف ببابك بالساعات، على أمل أن ترضى لأصحابها بالدخول.

أعرف يا حاج.. وجودي هنا تفضل منك وذلك أمر لا أنساه، ولا يمكن أن أقلل من أهميته، إن ذلك يعني أنك راض عني.. وأن عينيك تجوسان داخلي وتكشفه.

- وما دخل عينيك؟! كيف يا حاج!؟

وعيناك تبرقان كعيني صقر، يرى فريسته على بعد شاهق.

لا والله يا حاج ما خطر ببالي أننا فرائس لك. ولكن من أجل أن أوضح أن لك عينين - هما الله من كل سوء - يلمع فيهما ضوء ينفذ إلى الأعماق فيكشف ظلامها ويتحسس أحجارها ورمالها.

لا تضحك يا حاج.

نعم.. نعم.. وكيف لا.. النفس كالصحراء فسيحة ومظلمة، تتخللها الرمال كما تتخللها الجبال، ويشق ظلامها نور النجم وضوء الشهاب. نعم أنت الضوء الذي نأتي إليه ليفك ألغازنا ويكشف ظلام نفوسنا.

لم نعلم في زماننا رجلا أعلم منك.

- أنا يا حاج!.. والله ما سمعت يوماً لما يقال.

- ما يقال!! ألا تعرف يا حاج ما يقال.. إنه كلام خبيث.

لابد أن هناك من يحقد عليك يا حاج.. إنني ما قابلت أحداً إلا وأثنى عليك.

- كلهم!.. نعم كلهم يا حاج.

وهل هناك من ينكر علمك الروحاني، لكم شفيت المرضى، وأعدت المسروق وزوجت العانس، وأخرجت الثعابين من شقوقها، وأولدت المستعصية وألنت الحديد وطويت البر وتغذيت بسمك البحر وبيض النسور على قمة الجبل.

- دعهم يا حاج يقولون.

إنهم يغارون منك.

والله يا سادة وما لكم علي يمين، إنكم تجالسون عفريتاً من الجن.

لا تؤاخذني يا حاج.. فالأمر جاء دون أن أقصده.. فأنت والله مبارك من المولد حتى الممات. ولكن.

لا تضحكوا يا جلساء الحاج فما قصدت تفكهاة أو إضحاكاً، إنما كان قصدي أنه فاق الجن في تخفيه وحيله.

- سامحك الله يا حاج.. أنت محتال.. وهل يقوى مثلي على هذا القول.

أنا الرجل الضعيف آتيك لأستشيرك.. أفأسخر منك.. قطع لساني لو  
كان قصدي ذلك القصد.

حاضر يا حاج.. أدخل في الموضوع.. نعم سأدخل في الموضوع وهل  
أنتيت إلا لأدخل في الموضوع.. لقد تركت العمل وجئت إلى هنا لأدخل في  
الموضوع.

لقد حاول الخفير اللسان أن يوقفني فلم أفف.. كنت متعجلا كي  
أحظى بمقابلتك وتفضلك بالسماح بالدخول لي.. وأنا أعلم أن المطايا تقف  
أمام البيت بالساعات.

- تقول هل قال لي شيئا؟

وهل مثلنا يصدق ما يقوله يا حاج.

إنه لسان، الناس يسمونه باللسان، فهو يمد لسانه فيطول كل شيء..  
حتى زوجته وأولاده.

- تقول أظالك يا حاج!

- أنا لا أخاف يا حاج، وكيف أخاف وأنا في مجلسك ويحوطك الأعيان  
من البلد كلها ومن غيرها.. ولكنني فقط أخرج.

أمني يا حاج وأنا أحكي.. أمني فلقد زرع اللسان الخوف في الناس.

- ما عاش رجل يخوض في سيرتك يا حاج.. نحن لا نسمح لأحد أن يفعل  
ذلك.

والله إن سمحت يا حاج لذهبت إليه وقطعت لسانه.

لا تبتسم يا حاج.. أنا عند قولتي.

إذن يا حاج فلا تؤاخذني.. فالرجل يدعي أنك متزوج.

نعم يا حاج.. فالبلدة كلها تعلم أنك لم تتزوج.. ولكن اللسان لا أدخله الله جنته يدعي أنك متزوج من جنية بيضاء كاللبن الحليب، لا ترى إلا والفجر يسلم جلدته من ثوب الليل البهيم.. يدعي اللسان - كسب في نار جهنم - أنه رآك تنتظرها عند الحد الفاصل بين الليل والضوء على سطح الدار.

كففت عن الكلم يا حاج لأنني خزيان.. كيف جرأ اللسان على هذا القول.

- ماذا قال؟.. تقول ماذا قال؟..

قال كثيرا، أهم ما فيه أنك كنت تستقبلها عريانا ما يسترك ثوب.. رافعا ذراعيك. منتظرا أن تأتيك وتطير بك إلى البعيد لتخط في بئر الساقية القديمة.

- نعم كذاب.

ومن يصدق هذا المعتوه، ولكنه لسان يا حاج.. وهل يصدق أحد أنك تخاوي الجن.. هو اللسان.. نعم. لم يقل ذلك سواه.. والأمر طال.. ولا أدري لم تصبر عليه!..

- نعم تؤذيه يا حاج.. وهل يستحق أمثال هؤلاء إلا الإيذاء.

سامحي يا حاج.. فما سمعنا أنك آذيت أحدا.. كيف والناس يأتون  
إليك طمعا في البركة وشفاء الصدور ولكنه والله ركب رأسه وتمادى في  
الغي.

لا تقل كيف يا حاج.. ولا تطالبي بالمزيد ومعك الأعيان.

نعم أنت أمنتني.. ولكن كيف يليق بي أن أعيد ما يردده اللسان على  
المقاهي في الأسواق. يقول.. يقول كثيرا يا حاج.. لعنه الله.

هل يصدق أحد ما بقوله.. من أن عندك ثعابين مستأنسة تطويها  
وتفردها كالحاوي وترشقها في الجحور والشقوق، ثم تدعوها فتأتي، تتلوى  
وتنفث بالسحر، وتبرك على فخذيك وتحيط برقبتك.. من يصدق هذا؟

– أصدقه؟!

حاشا لله.. ومن يصدق هذا الأفاق.

اسمح لي يا حاج أن أخطرك وأمام الأعيان، أن الوالد يسيء إليك  
وان تركته حبط عملك، وقل زوارك، وشح رزقنا.

– ما دخلي يا حاج!.. تقول ما دخلي!!

إننا نعيش من فضلك، فالأمر يستدعي المعاونة، ونحن نقوم بها، ندل  
الناس عليك ونهتم بالمطايا، أثناء حضور أصحابها المجلس، ونبعث بالنساء  
يبعن الزبد والجبن وسعف النخيل، وبذور الكتان وعلف الخيل والحمير،  
وزبل الحمام وريش البط، والكحل المسحوق.. الأمر إذن يا حاج لا يخلو

من مال وعطاء.. وهبات.. ومن يدري يا حاج فقد تتم البركة وتحلو بنت  
من بنات البلد في عين أحد الأعيان، فيكون الفرح وتتم السعادة.

- ولا والله يا حاج ما جئت من أجل هذا.. ولا قصدته ولكنه جرى على  
لساني، فنحن لا ندري يا حاج، في مقامك كيف يفلت منا اللسان، إننا  
نفتح أنفسنا أمامك.. وأنت تكشف ما فيها، فترك للنفس راحتها فيما  
تقول.

- المقصد!!

والله لقد أزلت عن صدري هما كان قابضا عليه، ما كنت أعرف  
كيف أحادثك!

والآن أرى أنني قادر على عرض الموضوع الذي جئت من أجله،  
ونغص علي حياتي.. وكاد أن يهدم الجدار الذي أستند عليه.

أرجو أن يتسع صدرك يا حاج ولا يضيق بي.. فألى من نذهب إذا لم  
نأت إليك.

- ولا والله لا أشرب لك قرفة إلا إذا حدثني بشأني.. فإن صدري يضيق  
بي.. لا حيلة لي يا حاج.. ومن يضمن أن ألقاك بعد ذلك.

سأقول.. بالله لا تغضب يا حاج.

ولكن ماذا أقول.. الأمر مخجل.. ولكنني سأقول.

- إنما هو المنام.

نعم هو المنام.. الذي استيقظت منه مذعورا، وأنا أردد.. اللهم اجعله خيرا.. منام لا يصح أن يحدث لأمثالنا، تلهيهم سياط الحاجة، هو ترف لا يصبح أن نحلم به، ولأنه كذلك أرعيني وأخافني.. كنت في المنام عجيبا يا حاج.. لا بد أنني كنت عجيبا، وإلا فكيف لي أن أتزه في حديقة برتقال وأجوس في ممشيها وأتمسح في أزهارها، وأتمسح حباتها وتحت جناحي امرأة حلوة، بيضاء كاللبن الحليب.

هل أنا على وشك أن أخاوي يا حاج؟

- زوجتي!!

تقول زوجتي.. والله لم تكن هي.. وهذا هو همي.. كيف تأتيني امرأة في الحلم غير زوجتي كيف أسمح لنفسي أن أضبط متلبسا في حالة غرام مستعر مع امرأة غير زوجتي.. أأكون على وشك أن أخاوي يا حاج.

لا يا حاج لم يضبطني أحد، ولكني ضبطت نفسي في الحلم وأنتها، كيف أسمح لنفسي بهذا الترف، وأتجول في حديقة برتقال، وكيف أهوى امرأة غير زوجتي.

صحيح يا حاج أن زوجتي نكدية، وسليطة اللسان. وانقطع الحيض عنها وجف الصدر، ولكن ذلك لا يعني أن تفلت مني النفس وتعشق أخرى ولو في المنام.

أتضحك يا حاج. وهل في قولي ما يضحك؟

إن صدري والله ضيق. من يأول المنام إلا أنت.

إنني مصغ إليك يا حاج.

- اقترب؟

وهل هناك أعظم بركة من اقتراي منك.. فالتصق بك.. ذاك عين  
المنى.

- وكبدها أيضا!

نعم وكبدها أيضا وفشتها.. لا حرمك الله من البسمة، وجعل أيامك  
كلها ضحكا. أنا مصغ.. مصغ بكل ما في.

- نعم حديقة برتقال.

لن أرفع صوتي.. أنا أهمس إليك.. أذني في أذنك.. لن يسمع أحد.  
نعم حديقة برتقال! وهل في هذا شيء!

- حاقدون يا حاج! وهل على مثلي يحقد أحد، إننا نحفر بأصابعنا لنخرج  
لقمة العيش نسد بها أفواه العيال وندخل بها ألسنتهم المدلاة.

- معاذ الله يا حاج. أني لي أن أعترض.. من أنا لأعترض.

إذا كان هذا تفسير المنام فهو حقيقة.. لا يخلو أحد من حاقدين..  
الحقد قديم يا حاج، منذ حقد إبليس على آدم. وقابيل على هابيل.. و..

- أنا مصغ يا حاج. وهل يثرثر أحد في مجلسك وأنت قائده وصاحب  
جلسته.. أذني على اتساعها.

- يا لطيف.. ذاك والله ما كان ينقصني.

البت التي جاءتني في المنام حقيقة.. وأطاردها في الحقيقة.. أيمكن أن يحدث ذلك دون أن أدري.. إنني والله على وشك أن أخاوي!

لا تضغط بأصابعك على كتفي، كفايني عينك تنغرسان في أعماقي..  
إني أحس بهما تكشفان ما بداخلي من تلاطم واحتدام.

- غرام.. تقول غرام يا حاج علي.. ولكن.

لا أعترض.. كيف يعترض مثلي على مثلك.

كيف يكون الغرام غرما.. والحب هما، والقلب يتزف دما.

لا يا حاج.. لقد وافتك السجعة كما يسجع الحمام على أبراجه  
العالية.

حماك الله من كل سوء.. دعني أنفض ما على صدري أمامك.. لا تحرمني متعة أن أستفسر عن كل شيء.. فمن يضمن لي اللقاء بك مرة أخرى.

- صادق يا حاج.. فالنفس في المنام تأتي بما تعجز عنه في الواقع.

- إلى أين تذهب بي عيناى! أهذا سؤال.. إنها والله دائما مسافرة.. إلا في لحظات تواجدي مع زوجتي.. فهي هامة جامدة.

امرأتي يا حاج جفت والعين كما يقولون مدرج الهوى. وسفحه أيضا.. صحيح ما تقول.. فما دام هناك مدرج فهناك فخ.

هوت بي النظرة إلى السفح، والله أنك تسخر أحيانا يا حاج.. فهل كنت على القمة حتى أتدحرج إلى السفح.

لا تقبض علي هكذا.. ماذا تريد يا حاج أن تستخلصه مني.. والله لا  
ألف ولا أدور وإنما أنت تداخلي بنظراتك، خفف الوطاء قليلا فجسدي لا  
يقوى على روحك النافذة، إنها تشكني كالإبر.

أنا أعشق البنت!! ونظرتي لا تفارقها كلما مرت بالسوق وأعلنت  
عن بضاعتها.

- أهى بائعة الكحل!! والله ذكرتني يا حاج.. إن للبننت مشية تميل فيها ولا  
غصن البان، ونظرة تسرق الكحل من العين.. أتراها يا حاج تسرق ما  
تبيع!

- أتأدب!! وهل أنا خرجت عن الأدب. مجلسك يا حاج مصون لا يجرحه  
أحد ولا يمكن أن يخدشه.

- أمعقول يا حاج.. أنا أحب البنت، والبننت تحبني.. أتراها إذن كانت  
تتمایل من أجلي.. إنها لئيمة.. كانت تضاحكني تحت أشجار البرتقال  
وتقطف حباتها المدورة.. وتعصر زهورها.. كان وجهها مشربا بصفرة  
محمرة.. وكانت عيناها كحيلتين.. والله إن الوجه وجه بائعة الكحل..  
كانت تجذبني وأتمنع، تضاحكني وأعبث.

- تتعري وأخجل!!

والله إن ذلك حقيقة.. كانت المحبوبة تعري وأخجل.

ولكن كيف عرفت ذلك يا حاج.. وقد جاءني في المنام ولم ينكشف  
أحد على منامي سواي.

- هذا حق!

قطع لسان اللسان.. والله إنه فيض من فيوضات الرب..

أنت مبرأ من العيوب وموصول.. وأنا محب!

أنا محب!! ربما.. الأمر واضح يا حاج.. لقد كشفتني.

كلي لك.. أيمن أن يتحقق ذلك.. وأضع يدي على جسم طري  
بعدهما مللت جفاف أم العيال.. ولكن كيف يا حاج والجدار الذي استند  
إليه سيهوي!.

- ومن يعرف!

هل تحل بركتك ويصبح الأمر سرا لا يعرفه أحد.

- بسهولة ويسر!!

والله لو طلبت عيني ما بخلت.

- سأراها! تقول إنني سأراها رأي العين.. إذن آن الأوان يا حاج أن  
أشرب القرفة الحراقة التي تدير الرؤوس.

انتظر يا حاج. شربت ما فيه الكفاية.. دعني أرى يا حاج.

إنني كملدوغ.. إنها هي.. التي تحمل طبق الفاكهة.. البرتقال سيد  
الفاكهة.. نفس القد المشوق الذي يميل كغصن البان، نفس الضحكة في  
العين.. والكحل على الأهداب.. يا ساتر المفصوحين استرنا ولا تفضحنا،  
إنني لأرى الجسد كله مفرودا أمامي لا تخطئه العين ولا يستره ثوب.. هذا

فوق الطاقة.. إنه المنام نفسه يا حاج.. ولكنني عاتب يا حاج.. كيف  
تفضح منامي على رؤوس الأشهاد.. إن عيون الأعيان في مجلسك يلتهمون  
الصدر والبطن والفخذ.

- لا تضحك يا حاج.. إن الأمر لا يحتمل.. إنني أكاد أجن.. المنام حرمة  
لي.

- أتقول لا يراها أحد سواي.. أصدق.. أصدق يا حاج.. حاشا لله..  
كيف فات على ذهني ذلك.. أنت البركة كلها.. والفيض كله.

نعم إنني أصدق.. أنا فقط من يراها.. لقد أسديت إلي خدمة ما  
تصورتها يوما يا حاج.. يا خفي الألفاف.

أتراها أيضا يا حاج.. وأيضا أتيت بها خصيصا لي.

أية خارقة تلك التي حدثت على يديك.

- أريدها! أتسألني يا حاج.. وهل مثلي يرفض إن أردت.

- أنا مصغ يا حاج.. أذني تحت لسانك مباشرة وقلبي مفتوح لما تقول.

- أصدق.. أصدق! هذا القدر الفارع من نصيبي.. والله إن حدث سأكون  
عبدا لك.

- نعم.. نعم.. معاذ الله.. ما أروعك يا حاج علي.

اعذرنني.. فنحن هنا سواسية.. هذا صحيح.. لا عبيد ولا أعيان.  
اقبل عذري. فأنت المعلم الأكبر، وأنت قائد الجلسة وصاحبها.. كيف  
انزلق مني هذا الوصف.. نعم أنا مثلك.. رأيتها.. أنا مثلك يا حاج..

خلاص يا حاج .. أنت عبد مثلي تماما .. بالله يا حاج لا ترغمني على قولها  
ثانية .. خلاص .. خلاص .. أنت عبد .. أنت يا حاج البركة، أنت مقرب  
القلوب، وواصل المقطوع .. وبئر الهوى. لا ينضب. إنه بئر الهوى وليس  
بئر الساقية يا حاج .. كما يدعي اللسان.

- أنا مصغ يا حاج.

كلي لك يا حاج .. أذني تحت لسانك .. نعم .. نعم. وهل هذا مطلب  
يا حاج .. إنه مطلب تافه. دعني يا حاج .. لا تجذبني إليك .. إني سأفهم  
إليه .. وحياة البنت الحلوة .. لن أشرب القرفة قبل أن أحقق مطلبك.

- مطلبها هي !! هي تريد ذلك؟ ..

إذن لن تقوم من مقامك يا حاج قبل أن آتيك بالخبر .. ولتنتظرنني  
تلك البنت الحلوة .. سأتيك يا حاج والقرفة لم تبرد بعد.

والله إنه يستحق .. إنه يخوض في البركة .. وينتقص من قدر  
الواصلين .. ويعكر صفو الأعيان.

والله لأقطعن لسان اللسان. أنا ماض يا حاج .. وسأتيك بالخبر قبل  
أن تقوم من مقامك.



## الخدعة

حكّت الجارية للخادم فقالت:

- كان يوماً عصيباً.

أسند الخادم مكنته واستمع إليها. انسابت الريح إلى الأشجار - في هذا اليوم - فتمايلت، ومسحت برعشتها وجه الورد فاحمر. ثم مشت في تأن وخلاعة فاهتز بساط الحضرة، وتموجت مساحة النجيل، وانحدرت إلى المسبح فضحك الماء، وتكسر الموج. ثم انسلت في خفية فلامست الساق المفرودة فجفلت، فخبطت الأميرة الماء بجذل، وألقت بنفسها وغاصت إلى العمق.

جمعت في كفيها الماء ورنّت إلى خيوطه الرفيعة تنسرب من فرجات الأصابع، داعبها ضوء الشمس فعلت شفيتها بسمة فاترة ولوحت بيدها وخرجت. استنامت في خدر المنتشي على أريكة مجدولة من وبر ناعم الملمس. نفضت رأسها فتهدل الشعر. وامتدت الأيدي تدعك الجسد، وتلقط المناشف بقايا الماء.

وحين انسدل الشعر على كتفيها كخيوط الليل، تجمع الفتیان المررد ذوو العيون الكحيلية، والحواجب المزججة، والطواقى الحمراء الموشاة بالأخضر مذهب الحواف. أحاطوها وصنعوا من أيديهم قارباً مفروود الشراع. وتلوت الأميرة على دقات الطبله.. وحين رق العود برقت العين وارتنى الجفن.

حملها الفتیان إلى جناحها، وزخم العطر يدغدغ الحس، وغيم البخور  
يقطر رائحة ذكية، لهثت الأنفاس، وانداح العنبر، على سطح المشروب  
الساخن. أشارت بيدها، فأسدل الستار، واستبقت الفتیان. ...

فرح الأمير وعجز أن يكتف فرحته، فضحك ضحكة رائقة خرجت  
من قلبه وغطت وجهه. كانت الضحكة غريبة لطول عبسة على الجبين  
كانت تلازمه. أسعده فرح الأميرة ففرح. ولاحت سعادتها بادية فسعد.  
وظل موكب الفتیان عالقا بذهنه فتمتم:

– ما أروعهم .. لولا هم لظلت الأميرة متأببة ومشاكسة.

نادى على الجارية فجاءت مهرولة وأمسكت بالعود وعزفت. تمللم  
على أريكته فاحتوته بنظرها وابتسمت.

في هذا اليوم الذي حركت فيه الريح كل شيء لم يعد الأمير رشيقا  
كما كان. اكتنز جسمه، وتمدل صدره وكثر لهائه. حدق في ثمرة الرمان  
وقد تفتق قشرها ولاح حبها أحمر داميا فعاودته عبسة مفاجئة. كان حال  
القصر لا يعجبه. ولم ينس في خلوته وطربه أن الأيام تعاكسه، وأن الأميرة  
تواصل عنادها، وأن القصر امتلأ بالفتیان والغلمان المرد من كل لون  
جنس، وأن الأميرة توزع وقتها بين الألوان والأجناس. وحط عليه حزن  
مفاجئ داومه كالطرقة.. في هذا اليوم خلطت الأميرة بالأجناس ودخلت  
بهم جناحها.. نحى في قسوة واضحة لحظة الفرحة الطارئة فحزنت جاريته  
واغتمت.

نظر إليها في همود وقال في أسي:

- ما عاد القصر يريح النفس.
- احتضنت الجارية العود وبسطت يدها:
- لا تشغل بالك يا أميري.
- رنا إليها في تساؤل:
- لم أعد أرى أحدا منهم.. أين هم؟
- نظرت إليه في حذر وقالت:
- ألم ترهم يا أميري منذ لحظة؟
- ابتسم الأمير ساخرا وقال:
- لم أقصد الأميرة وفتيانها.
- تنهدت الأميرة في عمق:
- من تقصد يا أميري؟
- أشار بيده إلى المكان:
- أخشى أن يكون خدم النظافة قد انضموا إليها أيضا!!
- كنمت الجارية ضحكة كادت تزلزلها:
- سحرقهم أميري. تمتم في انتشاء:
- ما أروعها يا جارية! لم تقو على إزاحة ضيق أصابها فجأة، فقالت في غل:
- كانت قبل أن يسحروها يا أميري.

- وكيف كان ذلك؟.
- احتوتوها فلم يبق منها شيء.
- أعرّف أنك تخففين عني.
- لا يا أميري، اليوم ليس للضحك. فلم تعد أميرتي سوى مصاصة ناشفة.
- لولا أنك جاريتي لأوسعتك ضرباً بالسوط.
- لولا أنك الأمير الحبيب ما بحت لك.
- حدق فيها في قسوة، وتهدل صدغه ومال كتفه، نكس رأسه وهمس:
- زيديني يا جارية.. قولي ما عندك.
- أعطني الأمان يا أميري.
- أنت آمنة.. وأنت تعرفين.
- فهمزت الجارية. واستقام عودها. وأخذته بين يديها وهمست:
- خصيان القصر يا أميري.. فحول أقوياء.
- انفص الأмир، وسقطت عمامته، صوب بصره تجاه الجناح واندفع.

...

حكّت الجارية للخادم، أن الأمير ظل في الجناح زمناً ثم خرج هو والأميرة.. كانا يتلوويان على أيدي الفتیان المرء.

هز الخادم رأسه، وواصل كنسه.. فمنذ أن اختفى الأمير لم تمتد يد لإزالة المخلفات.. ولم ينتبه وهو يكس أن عمامة الأمير رأيتها.. أنا مثلك

يا حاج.. خلاص يا حاج.. أنت عبد مثلي كانت بين كومة المخلفات في  
طريقها إلى الحرقه.



## الفهرس

٥	..... صدأ القلوب
١٩	..... الزمان الذي كان
٢٩	..... سفر الحلم
٤١	..... تداعيات حزينة
٥٣	..... التجاعيد
٦٥	..... تراجع الصدى والصمت
٧٩	..... انكسار الضوء
١٠٥	..... الحلم يأتي غداً
١١٩	..... قطع اللسان
١٣٥	..... الخدعة